كتاب

١

الى الاصدقاء في منتدى ليلاس..

بدر

إخطية

اميل حبيبي

إخطية

اميل حبيبي

الى الاصدقاء في منتدى ليلاس..

بدر

منشورات مؤسسة «بيسان برس» للصحافة والنشر والتوزيع
قبرص ـ نيقوسيا
ص.ب: ٤١٧٩ ؛ هاتف: ٤٥١٢٤٠ / ٤٥١٥٧١

إخطية

اميل حبيبي

الى الاصدقاء في منتدى ليلاس..

بدر

منشورات مؤسسة «بيسان برس» للصحافة والنشر والتوزيع
قبرص ـ نيقوسيا
ص.ب: ٤١٧٩ ؛ هاتف: ٤٥١٢٤٠ / ٤٥١٥٧١

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى
١٩٨٥

«لك يا منازل في القلوب منازل
أقفرت أنت وهن منك أواهل
وأنا الذي اجتلب المنية طرفه
فمن المطالب والقتيل القاتل»؟

(أبو الطيب)

احتراس

وجدتني لاول مرة مضطرا الى تصدير روايتي هذه بالاحتراس التقليدي الذي تواضع عليه كتاب الغرب. وهو ان هذه الرواية هي بنت خيالي الشرقي المجنح. ولذلك فان أي شبه بين شخصياتها، أو احداها، وبين أشخاص واقعيين هو ابن غرض ما جنحت اليه عن قصد. بل أكاد أقول، دفعا للشبهات، إن أي شبه بين حيفا هذه الرواية وبين حيفا هذه البلاد هو محض هذيان توسطاجي!

لقد فتشت، في الروايات الغربية الموجودة في مكتبتي، عن نص تقليدي لهذا الاحتراس أترجمه وأنجو بقلمي فأدهشني خلوها من هذا الاحتراس. فاما ان يكون بعدها عن أي واقع دافعاً حتى لا حاجة الى احتراس. واما أن يكون الزلف فيها أمينا حتى لا داعي الى أي احتراس!

ترى، هل الامر الذي جعلني في حاجة الى هذا الاحتراس، هذه المرة، هو اهتزاز ثقتي بقيام حرية الحيين الى هذه البلاد في هذه البلاد - الى حيفا في حيفا؟

(المؤلف)

الدفتر الاول

شخوص

«وفي هذه السنة ظهر للمعتضد شخص في صور مختلفة في داره. فكان تارة يظهر في صورة راهب ذي لحية بيضاء وعليه لباس الرهبان. . . وتارة يظهر بيده سيف مسلول. . فكانت الابواب تُؤخذ، وتُغلق، فيظهر له أين كان في بيت أو صحن أو غيره. وكان يظهر له في أعلى الدار التي بناها. فأكثر الناس القول في ذلك واستفاض الامر واشتهر في خواص الناس وعوامهم. وسارت به الركبان وانتشرت به الاخبار والقول في ذلك على حسب ما كان يقع لكل واحد منهم».

(مروج الذهب)

١ ـ سيف من السماء مسلول

كان والدي، الذي لم يحمل معه من القرية الى المدينة من متاع الدنيا سوى عصا يتوكأ عليها، واخوتي الكبار يتوكأ عليهم، ووالدتنا، وهي حامل بي، يتوكأ عليها، وحكايات السامر، هو أول من ألقى علينا لغز الامير الفاضل الذي لم يهتد الى حله سوى ابن الوزير الاصغر.

قال: كانوا ثلاثة شبان أذكياء، أبناء الوزير الراحل. فشاء الامير الفاضل أن يعهد بالوزارة، بعد والدهم، الى أفضلهم. فاختبر فطنتهم بأن اجتزأ أربع دوائر صغيرة من ورق ملون: ثلاث منها حمراء والرابعة خضراء. وألصق على جبين الواحد منهم، وهو معصوب العينين، مستديرة واحدة. وأخفى واحدة. فاما أن تكون حمراء واما أن تكون خضراء. ثم أوقفهم مواجهة ـ «بستة عيون» ـ أي حل العصائب عن عيونهم حتى تتساوى، بالنصر، بصائرهم. وقال: ان من يسبق أخويه في الاهتداء الى لون الورقة الملصقة على جبينه يكون أشدهم فطنة. فأعهد بالوزارة اليه. ومن هنا، والله أعلم، جاء قولنا: «يفطن الى الشيء»، أي يتذكره ولا ينساه.

فاعتراهم الوجوم برهة. وظلوا صامتين منحيرين في أمرهم فيما كانت الدقائق تمر سراعاً. حتى اذا مضت ساعة من الزمن وهم حيارى، لا يبسون ببنت شفة، فطن أصغرهم الى سبب هذه الحيرة. فصاح: فوق جبيني ورقة حمراء.

كان والدي يدق الارض بعصاه، ايذاناً بانتهاء «الحدوثة»، ثم يلقي

علينا السؤال: فكيف اهتدى «قريد العش» الى لونها؟

كنا، بعد، صغاراً لم نبل عامل «مرور الزمن» ولا بلانا. ولذلك كان انتباه الواحد منا الى ان هذا العامل ـ مرور الزمن على الاخوة الثلاثة دون ان يهتدوا الى حل اللغز ـ دليل على فطنة المهتدي. وكنت منذ الصغر، بشهادة الوالد رحمه الله، فطيناً.

كبرتُ الان. فلم يعد مرور الزمن مجرد عامل بل أصبح الحياة كلها، الا بقية، ان شاء الله، من حسن ختام. ومع ذلك، والحق يقال، لم افطن، الا أخيراً، الى أن مرور أكثر من عشر سنوات على يوم «السكتة القلبية»، التي عطلت الحركة في شرايين مدينة حيفا، دون اهتداء الناس والمسؤولين عن الناس الى سببها أو إلى أسبابها ـ هو مفتاح هذا اللغز. كما كان مرور الزمن، ولو ساعة، مفتاح اللغز في حكاية الامير الفاضل وأبناء الوزير الثلاثة.

فالمدهش في الامر الاكثر انتشاراً، الامر الاشد بساطة، «المفهوم بذاته»، أن بصائرنا الملوثة تعجز عن رؤيته.

عن أية «سكتة قلبية» أتحدث؟ عن تعطل حركة السيارات، عن الازدحام الذي وقع قبل أكثر من عشر سنوات، بدءاً من ملتقى شارع «هحالوتس» وشارع «الانبياء»، ثم غمر شوارع حيفا كلها، وأخذ يمتد حتى مشارف عكا شمالاً، ومشارف تل ابيب جنوباً.

أعلم أن الناس آثروا نسيان هذا الحادث، واقعة وسبباً، جملة وتفصيلاً، حين عجز المسؤولون عن كشف أسراره. فجعلني هذا «النسيان الجماعي» أظن الظنون بأمري، لاول وهلة. فهل أنا مخمور كما اتهمني واحد من خلق الله ممن لم يتعاطوا، في حياتهم، الخمرة والابتسامة ولم يلتقوا، في حياتهم، الغول والعنقاء والخل الوفي، ويعتبرون سرور الفقراء وحبورهم اعتداء على ممتلكات أولاد النعمة؟

فإن بيني وبين هؤلاء العابسين، محتداً ولحداً، معرفة قديمة ـ منذ أن كنا نستأجر الدراجات الهوائية، في العطلة الصيفية، ونخوض بها وحل نهر النعامين، ضاحكين، وكانوا يقطعون الجسر بسيارات آبائهم عابسين. فلما ضجت الارض والسماء بلهونا وبضحكنا، في عرس واحد منا، عبسوا واستشاطوا غضباً، معتبرين عرس الفقير تطفلاً على ما خص به الله أولاد النعمة. وكان هؤلاء العابسون أول الراحلين بنعمة سياراتهم الخصوصية.

وبقيتُ منهم فئة ظلت تتوالد تحت الارض حتى كبرت فخرجتْ الى النور عابسة، وهي تحسب أن عنترة العبسي جاء من العبوس.

فلما تذكرت هذه الفصيلة الشاذة أيقنت أنني كما الناس: اهتدوا الى حل اللغز فلم يصدقوا أنفسهم. اذا كان الامر على مثل هذه البساطة فكيف لم يهتد اليه الناس الآخرون؟ فأصيبوا بدهشة فوق احتمال البشر. فآثروا محوه من الذاكرة. فإن «الباب الذي يأتيك منه الريح سده واستريح» (استرح)!

كنت واجهت ظاهرة «نسيان الرحمة». فوجدت أن مثلها مثل «انتحار الرحمة». يلتجيء اليه الانسان حين تدهمه «معرفة موجعة»: التعرف الفجائي على الموت، مثلاً. فهل من الممكن أن يعم «نسيان الرحمة»، في لحظة واحدة، الناس أجمعين؟

أعرف عن صديق اصطدمت سيارته، وهو يسوقها، بسيارة انقضت عليه مواجهة، أنه أغمي عليه. فلم يستيقظ الا بعد مرور عدة أيام على الحادث وهو في المستشفى. فما الذي حدث وكيف وقع الاصطدام؟ امّحت من ذاكرته، محواً تاماً، وقائع اللحظات التي سبقت واقعة الاصطدام. ولا يتذكر هذا الامر حتى يومنا هذا. ولن يتذكره.

أم أصابهم ما أصاب نيوتن، من غير دماغ نيوتن التحليلي، حين تساءل عن سبب سقوط التفاحة؟ كم من أسرار علمية تظل منغلقة عن علومنا فيما هي، في الواقع، ملقاة على قارعات الطرق تتدحرج بين أقدامنا أو تقع فوق رؤوسنا، تنتظر جرأة أرخميدسية: «وجدتها وجدتها»؟! ان التساؤل هو مفتاح المعرفة. والمعرفة هي سبر أغوار جديدة ـ مناجم موجودة ولكنها مطمورة. التساؤل هو تهديم صخور لشق منجم جديد.

في الجاهلية جاء تساؤل قس بن ساعدة الايادي ـ بدأ تقلع صخرة: «ان في السماء لخبراً وإنّ في الارض لَعِبَراً. ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟». نيوتن فطن الى وجود قوة طبيعية هي الجاذبية. وقاسوها وحددوها وأسرجوها وامتطوها وأطلقوا أعنتها. ولكن، لماذا هي موجودة؟ كيف تحولت القوة الطاردة الى قوة جاذبة نحو مركز هذا الكوكب الدائر حول مركزه؟ تصوروا انزياح ستر هذا الخباء عن بصيرة انسان عادي، مثلي ومثلك، «رجل الشارع» مثلي ومثلك؟ لم أقل: «امرأة شارع» أو «أولاد شوارع»، لاننا في حاجة الى المزيد من لظى المعرفة حتى تشعل النيران في العديد من الاقبية المظلمة المتوارثة. تظل

هذه الاسرار مغلقة في وجوهنا ما بقينا نتعامل معها تعامل المتلصص، عبر شق في ستارة نافذة، من الخارج، على جسد متجردة في خدر أسدلت ستائره. فما الذي يمنعنا عن تخطي العتبة والعبور الى الداخل؟

وهل كان «رجل الشارع» هذا يجرؤ على البوح بالسر؟

لماذا نذهب بعيداً، في الخيال؟ ألم نقرر، قراراً إجماعياً يستوي فيه المحكوم بالاعدام مع الجلاد، والجندي في الميدان مع وزير الحربية، والمسن الذي يجبو على ثلاث مع الطفل الذي يجبو على أربع، والسمكة الصغيرة الفريسة مع السمكة الكبيرة المفترسة، تجاهل الموت، وأن الحياة، بالموت الحتمي، عبث؟! وحين تجاهل «مؤدب الخلفاء»، العروضي، هذا التجاهل، هذا القرار الاجماعي، أخطأ في تصنيف «من يكري نفسه للقتل يعني المرتزقة من الجند» على أنه «أعجب العجب». فهذا الجندي، المرتزقة، مثله مثل غيره من الناس، شريك في القرار وفي الفرار.

هل تصدقونني إن أخبرتكم ـ وها أنا فاعل ـ بأن مخلوقاً من الفضاء الخارجي أوقف سيارتي في طريقي، ليلة، عائداً من عكا الى حيفا؟ كان شاهق القامة، رأسه في الغيوم وقدماه منفرجتان على عرض الطريق عبرتُ من تحتهما دون أن ألوي على شيء، ودون أن ألوي رقبتي الى يمين أو الى شمال؟

وهل تصدقونني اذا أخبرتكم، وها أنا فاعل، بما شاهدناه، جماعة من هواة صيد السمك، من «غول» أقعى لنا على يمين الطريق حين كنا عائدين من شاطىء جسر الزرقاء الى حيفا، منتصف ليلة، على الطريق القديم؟ لم ننقسم بين مصدق ومكذب، بل بين خائف رفض العودة، بسيارتنا، الى مكان «الغول» الذي أقعى لنا، وبين جريء واثق بنفسه، وبما شاهد، وأصر على العودة. وبقينا على هذا المنوال لا نمر في ذلك المكان الا في منتصف الليل حتى دهمتنا، منتصف ليلة، بقرة شرود عبرت الطريق من يمينه الى يساره.

ولولا ما قرأته، مؤخراً، عما رواه الرحالة المسعودي في «مروج الذهب» مما كان ركاب المراكب الشراعية يشاهدونه، في الزمان الاول، من مخلوقات عجيبة، لما تجرأت على مجرد مساءلتكم: هل تصدقونني إن أخبرتكم عما أشاهده أنا أيضا، وها أنا فاعل؟

أما أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي فقد روى عن «بحر الصين» انه «بحر خبيث كثير الموج والحبّ». قال: «وتفسير الحب الشدة

العظيمة في البحر».

قال: «وذلك أن البحر، اذا عظم حبه وكثر موجه، ظهرت أشخاص سود طول الواحد منهم نحو خمسة أشبار، أو أربعة، كأنهم أولاد الاحابيش الصغار، شكلاً واحداً وقداً واحداً. فيصعدون على المراكب ويكثر منهم الصعود من غير ضرر. فإذا شاهدوا ذلك تيقنوا الشدة. فان ظهورهم علامة للحب. فيستعدون لذلك».

قلت: أما أنا فحين أشاهد هذه الاقزام، وأشاهدها، أتيقن أن الشدة تشدني، وأنني أصارع الحب حتى لا يغرقني تحته.

فكم من ليلة عدت فيها، بسيارتي، منهوك القوى من شدة القهر، فظهرت لي في وسط الطريق مخلوقات قزمية «طول الواحد منهم نحو خمسة أشبار او أربعة... شكلاً واحداً وقداً واحداً». فإما أن يكونوا في شكل بن غوريون صغير، أو في شكل ديان صغير. ولا يلتقيان، أمامي، في وسط الشارع. فإما عشرات البناغرة الصغار، «شكلاً واحداً وقداً واحداً»، واما عشرات الديانات الصغيرة، «شكلاً واحداً وقداً واحداً». وحين كانوا يظهرون، في وسط الشارع أمامي، كنت اتحول بالسيارة الى هذا الجانب أو الى ذاك الجانب من الطريق. فاذا تكاثروا علي أوقفت السيارة دونهم فأنام أو أن يحلّوا عني. وكانت هذه «الاحابيش» تمر، أحياناً، من تحت سيارتي دون أن يصيبها أو يصيبني سوء. ويؤسفني أن أعترف بأن شرف هذا الظهور، أمامي في ليالي الشدة والحب، وهي مستمرة وتشتد حتى يومنا هذا، لم يقيض لاحد سوى بن غوريون الصغير وديان الصغير. لقد ذهبا وحل محلهما سواهما. غير أنهما لم يحلاّ عني، «أحابيش»! كنت أتمنى ان يخلفهما، مثلاً، بيغن صغير أو شامير صغير. فهو ملائم «شكلاً وقداً». أو، تصوروا، أرئيل شارون صغير. ماذا سيبقى منه، «شكلاً وقداً»؟ ولكن، ما بالعين حيلة.

فهل ظهور هذه «الاحابيش»، في عز الظهر، هو السبب في «جلطة المواصلات» الشهيرة والمنسية، «نسيان الرحمة» في حيفا؟

لقد استطعنا، في الجريدة، الكشف عن أسرار التحقيق الذي أجرته الشرطة في الامر. ونعلم أنها لم تترك «خيطاً» الا التقطته ومضت فيه حتى نهاية الدياس. فلم تجد، في آخره، سوى دياس آخر، بما في ذلك أن يكون ظهور «مخلوق فضائي» هو السبب في حدوث تلك «الجلطة».

ولما شاءت الاقدار ان أكون، بسيارتي، بين أوائل السائقين شاردي اللب في تلك الزحمة، فقد توقعت من هيئة التحقيق في الحادث ان تستجوبني بشأن هذه الفرضية. بل انتظرت، بجريرة رجل الفضاء في المشاغل، أن تطلب مني أن أكون «شاهد ملك» في القضية.

ولكنها، لامر ما، تركتني وشأني على الرغم من الحاح ثلاثة من شهود العيان على هذا الامر، وقفوا في مواقع متباعدة وشهدوا بأنهم رأوا، بأم العين، صحناً طائراً يحوم فوق رؤوسهم ثم يطلق من تحته بريقاً أشد سطوعاً من نور الشمس في الهاجرة. وكانت الشمس في الهاجرة. ويمتد الى الارض كأنه الصاعقة. أو السيف المسلول. ثم يهبط عليه الى الارض رجل طويل القامة كأنه المئذنة طولاً والتفافاً. يرتدي عباءة تونسية بيضاء. وأصر قادم من العراق على انها دشداشة. أما الشاهد الثالث، وكان امرأة نصفاً من مواليد طبريا، فاكتفت بالقول: إنها مما كان يرتديه جيراننا العرب. ولكنهم اتفقوا على أمر واحد وهو أنهم شعروا بألم كما لو أن ذلك السيف الضوئي المسلول اخترق صدورهم كما يخترق السفود صدور الفراريج المشوية، أو صدور سكان تلك الجزيرة النائية التي وقع عليها السندباد البحري فيما كان الغيلان، المخلوقون بعين واحدة، يحكمونها ويأكلونهم شيا.

لم يكن سلاح أشعة ليزر، الذي قيل ان كتائب التدخل السريع الامريكية قد زودت به الان، معروفاً في بلادنا. كما كنا نعيش، بعد، فيما قبل عصر «حرب النجوم». ولذلك لم يطل اهتمام صحف المساء بالروايات عن الصحن الطائر، والسيف الضوئي المسلول من تحته، وذي العباءة أو الدشداشة الهابط عليه الى الارض طويل القامة كأنه المئذنة.

بل لم تفت عاينا محاولات الدوائر المسؤولة اسكات هذه التقولات التي من شأنها تعظيم قدرة العدو العربي، أو حتى العدو السوفييتي، في أعين سكان الدولة الذين لقنوا أن العرب لم يخرجوا في حروبهم، بعد، من عهد السيف والترس، وأن الروس لم يهتدوا، بعد، الى شارات المرور الضوئية. ولم يقلل من نجاح محاولاتهم هذه قيام ثلاث منظمات فلسطينية، على الاقل، بنسب عملية الصحن الطائر، وذي العباءة، أو الدشداشة، إليها. أما جامعة الدول العربية فالتزمت الصمت عملاً بالحكمة التي التزمتها منذ ضياع فلسطين: «تكلم السيف فاصمت أيها القلم، أو أيها الفم. فكيف وقد كان هذا السيف، هذه

المرة، سيفاً ضوئياً مسلولاً في رائعة النهار؟ أو تكون قد صمتت، هذه المرة، في انتظار قرار جماعي تقره قمة قادمة. والله أعلم.

غير أن صحف الصباح وصحف المساء استمرت، لبضعة أيام أخرى، في الاهتمام بأقوال المرأة الطبرانية عن تفصيل الثوب المرسل الذي ادعت أنها شاهدت رجل الفضاء، الهابط على سيف السماء المسلول، يرتديه وقالت عنه انه «مما كان يرتديه جيراننا العرب».

فمن المعلوم أنه لم يبق لسكان طبريا جيران عرب في طبريا. فلما كانت سوريا من جيرانهم الاقربين فقد التجأ اكثرهم الى ذلك الجار. والدار بالدار والجار بالجار. فلما دار عليهم الزمن وجار التجأوا الى ديار الجار. وأقلهم التجأ الى كفركنا والناصرة. فانتسبوا الى المؤرخ الطبري. وعرفوا باسم الطبري والطبراوي مع أن طبرية محمد بن جرير هي من طبرستان. ولكنهم لم يعرفوا بأردية مرسلة خاصة، بيضاء، كانوا يرتدونها حين كانوا في مسقط رأسهم جيرانا لجيرانهم اليهود في طبريا.

فهل عادوا؟

كانت أجوبة المرأة الطبراوية مبهمة. وحملتها على محمل عدم نسيانها العيش والملح. أما المسؤولون فألحوا عليها بالسؤال: هل قاموا بزيارتك؟

أجابتهم بأنها تسكن، منذ ان وضعت الحرب أوزارها، في حيفا، وتزوجت برجل أشقر قادم من بولندا. وتعمل ممرضة في مستشفى في الكرمل. وهنا جيران عرب ولكنهم ليسوا من طبريا ولا من طبرستان. فهل علمت بفلسطينيين لاجئين زاروا جيرانها العرب في الزمن الاخير؟ قد يكون، قالت. ولكن الطبرانيين عاجزون عن زيارتهم لانهم موجودون في سوريا.

أطلق هذا الجواب سلسلة من مقالات ظهرت في الصحف أنشأها مستشرقون ومستشارون أكدوا فيها، بالارقام البينات، أن الفلسطينيين لا يعجزون عن العودة الى بلادهم، ولو زيارة يا ربيع، وعلى رأسهم الطبرانيون.

ويعودون عبر الجسر، ورأس الناقورة، وعبر جزيرة قبرص... ويكونون قادمين من الكويت ومن السعودية فكيف لا يأتون من سوريا؟!

وأحصى مستشار، في مقالة، ثلاث فتيات فلسطينيات صراويات قدمن من سوريا وتزوجن أقرباء لهن في اسرائيل. اثنتان منهن يسكن حاليا، كما قال، في الناصرة. والثالثة في قرية طرعان. فهل كان أزواجهن، أقرباؤهن، من

مواليد طبريا؟ ليس بالضرورة. فالطبراني، منذ أيام أبي الطيب المتنبي، هو كل من انتجع شاطىء البحيرة في شتاء وورد ماءها في صيف. ولذلك تجدهم منتشرين، حتى قبل كارثة النشور، ما بين الفرات والنيل. وقد يكون أبو الطيب لم يسمع سوى زئيرهم حين قال:

«وِرْدٌ، إذا وَرَدَ البحيرة شارباً،

وَرَدَ الفرات زئيرُهُ والنيلا»

ولو لم يتنبأ، في صغره، لما وجدوا له لقباً خيراً من هذه البحيرة، ولكانوا أبقوه لنا باسم أبي الطيب أحمد الطبري، علماً بأن طبرية لم تخلُ، منذ ذلك الزمان، من الشعراء ومن صيادي السمك. وكلاهما شاعر ولا خيل عندهم ولا مال.

فكيف يعجزهم مقامهم الحالي عن العودة ـ تساءل المستشار كاتب المقال؟!

قالت: كانوا يُلبسون أولادهم ثوب الخام الابيض، على اللحم. وكانوا يسمونه «الشنطة». فأخذناها عنهم. وقال أجدادنا هم الذين أخذوها عنا.

بحثت، في القاموس المحيط، عن أصل «الشنطة» هذه، فلم أجد أقرب اليه من الثوب «الشماطيط»، وهو «الخلق المتشقق» والضارب لونه الى البياض. وقد يكون أجدادنا قالوا: الثوب «الشمط». فلما تجاوروا، في طبريا، تمازجوا فقالوا: «الشنط» و«الشنطة». وحملوها الى حيثما ورد زئيرهم، من الفرات حتى النيل.

ولولا ما في الاسترسال في تهمة عودة الطبراويين من عواقب وخيمة لظل المحققون يستجوبون هذه الممرضة الحيفاوية، ذات الاصل الطبراوي، في الامر، حتى ينتزعوا منها اعترافاً بصلة قربى، أو، على الاقل، جيرة مع صلاح الدين الايوبي الطبراوي، أو مع طبيبه اليهودي موسى بن ميمون الذي يسمونه، تنصلاً من هذا الاصل، «رمبام»، وسموا باسمه مستشفى الحكومة القديم في حيفا القائم على شاطىء حيفا القديمة حتى يومنا هذا، وكنا نسميه باسم طبيبه الاول الشهير، الدرزي العربي، «مستشفى الدكتور حمزة».

ولم يكفوا عنها، أيضا، الا بعد ان علقوا بخيط آخر وجدوه يفضي الى فسحة يتبحبحون فيها ويتفسحون على هواهم، فسحة لا عد ولا حصر لمنافعها الامنية، حتى كأنها الباذنجان، قشراً ولباً وبذورا.

٢ ـ الجلطة

شاء القدر، في ذلك اليوم المنسي، أن تكون سيارتي ـ وأنا سائقها ـ بين أوائل السيارات التي توقفت طويلا، لسبب مجهول، أمام شارة المرور الضوئية القائمة عند مصب شارع «هحالوتس» في شارع «الانبياء». توقفنا، سيارتين سيارتين، في صفين متجاورين، السيارة وراء اختها السيارة، بالاضافة الى صف من سيارات التاكسي، الرابضة في موقفها على الرصيف الايمن من الشارع تنتظر ركابها الى عكا، أو الى تل ابيب، والى صف من السيارات الخصوصية أوقفها أصحابها على الرصيف الايسر من الشارع، ونزلوا يتبقلون أو يستفكهون (يشترون الفاكهة) ينتقونها، بالنظر، من على بسطات وقف أصحابها أمامها ينادون على ما فيها من خضار، ومن فاكهة، رتبوها أهرامات من الكرات الخشبية الملونة. فذلك هرم من البندورة الحمراء، قانية بلون زمك ديكنا الفحل، بكّاك عشر دجاجات، أو سحنة المدير الانجليزي الذي كان يزور أخي الكبير في بيتنا متورد الوجنتين، أصفر العُرف. فأنعمت عليه الوالدة، رحمها الله، بهذا التشبيه فقالت: سحنته بلون زمك ديكنا. وذلك هرم من الاجاص الخشبي الاصفر الباهت لا ماء فيه ولا حياء، كأن أشجاره ذبلت أو أصيبت بعسر الهضم، منذ أن «ذهب العرب». وتلك أهرام من التفاح المتعدد الوان الخدود وأقطار الخصور. منظر خلاب. وطعم أشبه بنشارة الخشب. سقى الله أيام التفاح القرقشاني الذي كان يأتينا من «البهجة» بالقرب من عكا: خد أحمر، وخد أصفر، وطعم أشبه بطعم «عقيدة» أو «عصيدة» الصبايا: حامض على حلو. فمنذ أن اهتدى وزير الزراعة، الى حبة البندورة الصغيرة ذات القشرة القاسية وأنها صالحة للتصدير، فسماها «موني ميكار» ـ أي «صانعة المال» ـ أصبح صراع البقاء في بساتيننا موجهاً نحو الافضل في التصدير، وفي صنع العملة الاجنبية، شأنه شأن السماد الاصطناعي. فاختفى التين الغزالي، ذو الفم الذي يسيل عسلاً، والمشمش اللوزي، الذي جمع فتيان سيلة الظهر شملنا به بعد العام ١٩٦٧. أما اليوسف افندي، ذو الرائحة الاخاذة التي تعيد الشيخ الى صباه، والقشرة المتجردة بمجرد الاشارة، والطعم الممتنع، فقد بقينا، حتى العام ١٩٨٢، نخفي سر بيارته الباقية، في أراضي

قرية البصّة، ونشـريه من صاحبه العربي البصاوي الوحيد الباقي، نحن وأهالي كفـر ياسيف، في المـواسم. حتى جئناه في العـام التالي فوجدنا البيارة قاعاً صفصفاً وأرضا محروثة. فسألناه عن السبب. قال: أولادي قرروا اقتلاعها لأنها لا تصنع مالاً. فتعزينا بالمندلينا وبالكلمنتينا. ولكنهما ليسا اليوسف افندي، كما ان الخضـاب لا يعيد الشبـاب، والصبية السفارادية السمراء، على غنجها، ليست العربية. ولو نبت الحنين على الشجر فاكهة لكان اليوسف افندي. ولو كان للندم على ما سلف من طيش مذاق لكان مذاق اليوسف افندي الاقرب الى مذاقه. ولكن الندم، كما السيف المسلول، يلمع ويجرح ويبقى في الصدر لا يبرح.

وفيما كنت غارقاً في هذه الاحـاسيس، أو في أشبـاهها من أحاسيس الاختناق وقد اشتدت عليّ آلام الحموضة في المعدة، أحصيت عدد ما أمامي، في الصف الايسر، من سيارات متوقفة أمام شارة المرور الضوئية، وموقع سيارتي في الصف، فاذا بموقعها السادس، أي خمس سيارات أمامها حتى شارة المرور الضوئية.

فاستعذت بالله، سبحانه وتعالى، من شر تجاوزي رقم (٥). فان هذا الرقم ـ الخامس ـ هو الرقم الذي اخترته، كلما وقفت سيارتي أمام شارة مرور ضوئية، نطاقاً يبشرني بأن يومي، اذا لم أتجـاوزه، سوف يمر بسلام. فاذا تجاوزت هذا الرقم تطيرت، وركبتني الهموم من شر الشيطان الرجيم.

استعـذت بربي من الشيطان الـرجيم فاذا به، أي الشيطان الرجيم، يركبني. فأدركني سرور شمشون الجبار حين انتبه الى قدرته على الانتقام حتى في ساعة العجز المطبق. فصاح: «علي وعلى اعدائي، يارب». صرخت، في سري: نامـوا فلماذا أوقظهم؟ قطعت الكهرباء عن محرك السيارة وقعدت لا انتظر بل أقول: لينتظرني الاخرون. وأخذت أبصبص في دخيلتي مختبئاً فيها اختباء العفريت في الابريق.

وحكـاية العفـريت في الابريق أن ابليس اللعين قرر أن يذل ويبهدل شيخـاً ورعاً تقياً وعالماً رصيناً رزيناً، أميراً مهاباً في قومه، ومسموع الكلمة. وكـانت العرب تأتيه في مضافته ليقضي بينها. فأدخل ابليس اللعين نفسه في ابريق ماء فخاري كان الشيخ قد وضعه على مصطبة مرتفعة لشأنه ولضيوفه. وتلبّس ابليس اللعين رأس حصان صغير، وأخذ يطل به من فوهة الابريق كلما

همّ الشيخ أن يقضي بين الناس. فذهل الشيخ وصاح: حصان في الابريق. ولم يظهر ابليس اللعين في الابريق. الا للشيخ المسكين. فظنوا بعقله الخرف أو أنه اصيب بلوثة. فأخذوه الى طبيبهم حيث أقام في كنفه شهراً أو شهرين حتى تعافى، وقال إنه لم يعد يرى الحصان في الابريق. فعاد الى بيته وهيبته ومضافته، أميراً وقاضياً في قومه. فعاد رأس الحصان الصغير يطل عليه من فوهة الابريق. ولكنه أمسك، هذه المرة، عن الصياح حتى انفض عقد الجمع. فلما خلا الى نفسه نادى على المختبىء في الابريق قال: «شايفك. شايفك».

أجـرت الشرطـة، في حينـه، تحقيقـاً من ذلك الصنف الذي يسمونه «متكاملا». ومن أصوله انها لا تترك عابر سبيل، في نطاق دائرة مركزها موقع الحادث (تقاطع شارعي «هحالوتس» و «الانبياء») ونصف قطرها مسافة ما بين المركز والميناء، أو ما بين المركز و «الكرمل الفرنسي»، الا واشتبهت بأنه عربي. ولا تترك مشتبهاً الا وأشبعته تحقيقاً. ولا تترك مضروباً الا بعد أن تبلغ الصحافة بأنه «اعترف». ولا تترك الصحافة معترفاً الا بعد ان يعلن رئيس أركان سابق بأنـه «فعلهـا»، وأنـه فعلهـا ليثبت جدارته بعضوية حركة سرية معادية لحق اسرائيل في الحـركة. ولا يتركه رئيس الاركان السابق الا بعد أن يعلن نائب رئيس كنيست انه «فعلها» لانه لاسامي، ولذلك سوف يفقأ عينيه الاثنتين. فاذا كان أعور فالعين السليمة. فاذا كان ضريراً فذلك أكبر برهان على أن اللاسامية قد نخرت لحمه وعظمه، فآثر العمى على رؤية دولة اليهود.

ولا اعتقد أن زمرة ذوي الاعصاب الحديدية، التي أبت على الناس حق الغضب الا بعد تأليف لجان الدرس والفحص والمسح، ستتهمني بالمبالغة أو بالتهـريج فيما أوردته عن أصول «التحقيق المتكامل». فقد يكون ترامى الى مسامعهم، على الرغم من أعصابهم الحديدية ما فوق الطبيعة، ما ترامى الى مسـامعنا والى أنظارنا من بعض الظن بالدوافع التي تدفع العرب الى التكاثر الـطبيعي المستكثـر عليهم، حتى أصبحنا نرى أصحاب الظن يراقبوننا من خلف الشبـابيك، يسـترقـون علينـا السمع والنظر ويحصون علينا كل نأمة، ويحسبوننا لا ننام مع نسائنا الا بقرار يأتي من «ابو عمار»، هذا اذا كان النائم منا مرموقاً. والا، فعلى الاقل، من «أبو جهاد». وانها، في الحالتين، لثورة حتى النصر. أما اذا كان الواحد منا شيوعياً فالقرار مسكوبي، والهتاف «الاممية». فكيف لا يظنون الظنون بالعور وبالعميان منا؟

وانشأت الشرطة، لضمان تحقيق هذا «التحقيق المتكامل»، هيئة تحقيق عليا، ضمت بين دهاليزها مندوباً عن قيادة الشرطة العامة، ومسؤولاً كبيراً في «حرس الحدود»، وكبيراً آخر مندوباً عن «خدمات الامن»، ومتصرف لواء، ومنسق عمليات، وضابطاً كبيراً في هيئة الاركان العامة، ومبعوث المستشار لشؤون «الاقليات»، وبروفيسوراً آخر يفهم «العقلية العربية». وضم الى هيئة التحقيق العليا، هذه، بروفيسور أمريكي من العاملين السريين في مركز أبحاث الفضاء الامريكي السري في «كيب كانافيرال». وذلك حين تفتق التحقيق، أول ما تفتق، عن خيط امتد نحو الفضاء الخارجي، واحتمال أن يكون مخلوق فضائي هبط، فجأة، على شارع «هحالوتس».

وقيل، فيما بعد، إنه أول من انتبه الى استحالة وقوع حادث الصحن الطائر والسيف المسلول، تحته، وهبوط لابس «الشنطة»، مما كان يرتديه جيراننا العرب في طبريا، عليه. قال: لو كان العرب اهتدوا الى هذه الاسرار لتبرعوا بها وأعربوا عنها لنا اعراباً عربياً مبيناً، فإن العربي من الاعراب. *ولا يختلف في ذلك الأعراب منهم والحضر. وسموا هكذا لانهم، دوماً، حاضرو اللسان بالجواب، مسؤولين أو متبرعين. أسرارهم في قلوبهم وقلوبهم على ألسنتهم، ولا يحسنون الظن إلا بالاجنبي.

فلما انتهى الخيط عند المرأة الحيفاوية ذات الاصل الطبراني ـ من طبرية لا من طبرستان ـ ذهب الى طبريا واستحم في بحيرتها عارياً. فلما عاد الى الشاطىء يرتجف من البرد وجد ثيابه وسيارته مسروقة. فنقلته الشرطة، وهو على هذه الحال، الى مركزها في المدينة. وشرعت، للتوّ، في البحث عن سيارته وأثوابه في القرى العربية المجاورة، مؤكدة ان الحادث أمني. فلما لم يقعوا على أي أثر لها، ولما أعرب عن رغبته في أن يبحثوا، أيضاً، بين سكان طبريا اليهود، أجابوه: ولكن المتهمين العرب اعترفوا. وانتخب، بحق ما قدمه لاسرائيل من هذه الايادي، عضواً في مجلس النواب الامريكي، عاد، بعدها، الى اسرائيل مهاجراً، ثم مديراً لمعهد أبحاث الذرة في ديمونا، ثم وزيراً للخارجية. أما وقد مضى العديد من السنين على هذه الترقيات السريعة فلم يعد واضحاً، الآن، في أي من البلدين جرى تعيينه وزيراً للخارجية: في اسرائيل أم في الولايات المتحدة الامريكية. غير أن باحثاً إسرائيلياً مرموقاً أشار، في مقالة له في احدى الصحف فيما بعد، الى أن رئيس الوزراء السابق، مناحيم بيغن، كان يعني

أفضال اسرائيل على هذا البروفيسور الامريكي، وأنه كان من الممكن ـ لو أرادوا ـ اغتصابه فضلاً عما سرقوه من أثوابه وركابه، فلم يفعلوا تفضلاً عليه، فيما عناه من الخدمات الجلّى، بالمال وبالبنين وبالحرمات وبالارحام، التي قدمتها اسرائيل منذ قيامها، وحتى قبل قيامها، للولايات المتحدة الامريكية، ولرسالتها الحضارية العالمية، مقابل بضعة من حديد ومن ذخيرة لهذا الحديد الذي يدب على الارض، أو يسبح في البحر، أو يطير في الهواء، ومنه سيارة البروفيسور وثيابه الداخلية، ونعومة بشرته المتشمسة من غير سوء.

كانت بداية الامر ظهر أحد أيام الربيع، في مستهل السبعينات. وكنت مسافراً، بسيارتي، من الناصرة الى عملي في حيفا. واخترت، كعادتي، «طريق الهدار» أو «حيفا الفوقا» فلم أكن اختار طريق «حيفا التحتا»، المكتظة بالسيارات في النهار، الا في أيام السبت، حين يتركوننا نسرح ونمرح فنقع فرائس سهلة، سارحة مارحة، لكمائن شرطة المرور التي لا نشاء الا ان تكمن لنا في السبوت.

انتهجت، اذاً، طريق «حيفا الفوقا». وذلك بعد أن عبرنا «جسر شل»، الذي أصبح «جسر باز» (والبترول واحد)، من تحته. فشارع «هجيبوريم» ـ يعني «الأبطال» الذين «طردوا» عرب وادي روشميا من بيوتهم واكواخهم. فجسر روشميا (من فوقه). ثم شارع «هحالوتس».

وهو شارع شقّه المستوطنون اليهود الاوائل في حيفا، وهو من اوائل حاراتهم على سفح جبل الكرمل. وظلت الغالبية من أبنيته وحوانيته على حالها منذ «أيام العرب» ـ ويعنون، بها، أيام الانتداب البريطاني عليها ـ سوى محطة بنزين وتوسيع دكاكين، واختفاء كشك صديقي اليهودي الشاب، وكلنا كان شاباً في «أيام العرب»، الذي كان يقف معي أمام باب كشكه، ويراقب المارين والمارات، ثم يتنهد ويقول: «آخ، يا حبيبي، من يتزوج كل هذه»؟

سمّوا هذا الشارع باسم «هحالوتس». ومعناه «الطليعي». فلا يجوز لنا، تاريخياً، ترجمته الى اللغة العربية كما فعل اخواننا اليهود بالعديد من الاسماء العربية العريقة في هذه المدينة، او بدلوها تبديلاً، حتى اصبح شارع الناصرة شارع «اسرائيل بار يهودا»، واصبح منبعه ـ ميدان الملك فيصل ـ أمام محطة سكة حديد الحجاز ـ «شارع خطيبات جولاني»، وهو خط عربي ركيك يقصدون به الاسم العبري «حتيفات جولاني»، أي فرقة «الصاعقة» العبرية

وأنشأت الشرطة، لضمان تحقيق هذا «التحقيق المتكامل»، هيئة تحقيق عليا، ضمت بين دهاليزها مندوباً عن قيادة الشرطة العامة، ومسؤولاً كبيراً في «حرس الحدود»، وكبيراً آخر مندوباً عن «خدمات الامن»، ومتصرف لواء، ومنسق عمليات، وضابطاً كبيراً في هيئة الاركان العامة، ومبعوث المستشار لشؤون «الاقليات»، وبروفيسوراً آخر يفهم «العقلية العربية». وضم الى هيئة التحقيق العليا، هذه، بروفيسور أمريكي من العاملين السريين في مركز أبحاث الفضاء الامريكي السري في «كيب كانافيرال». وذلك حين تفتق التحقيق، أول ما تفتق، عن خيط امتد نحو الفضاء الخارجي، واحتمال أن يكون مخلوق فضائي هبط، فجأة، على شارع «هحالوتس».

وقيل، فيما بعد، إنه أول من انتبه الى استحالة وقوع حادث الصحن الطائر والسيف المسلول، تحته، وهبوط لابس «الشنطة»، مما كان يرتديه جيراننا العرب في طبريا، عليه. قال: لو كان العرب اهتدوا الى هذه الاسرار لتبرعوا بها وأعربوا عنها لنا اعراباً عربياً مبيناً، فإن العربي من الاعراب. ولا يختلف في ذلك الأعراب منهم والحضر. وسموا هكذا لانهم، دوماً، حاضرو اللسان بالجواب. مسؤولين أو متبرعين. أسرارهم في قلوبهم وقلوبهم على ألسنتهم، ولا يحسنون الظن إلا بالاجنبي.

فلما انتهى الخيط عند المرأة الحيفاوية ذات الاصل الطبراني ـ من طبرية لا من طبرستان ـ ذهب الى طبريا واستحم في بحيرتها عارياً. فلما عاد الى الشاطىء يرتجف من البرد وجد ثيابه وسيارته مسروقة. فنقلته الشرطة، وهو على هذه الحال، الى مركزها في المدينة. وشرعت، للتو، في البحث عن سيارته وأثوابه في القرى العربية المجاورة، مؤكدة ان الحادث أمني. فلما لم يقعوا على أي أثر لها، ولما أعرب عن رغبته في أن يبحثوا، أيضا، بين سكان طبريا اليهود، أجابوه: ولكن المتهمين العرب اعترفوا. وانتخب، بحق ما قدمه لاسرائيل من هذه الايادي، عضواً في مجلس النواب الامريكي، عاد، بعدها، الى اسرائيل مهاجراً، ثم مديراً لمعهد أبحاث الذرة في ديمونا، ثم وزيراً للخارجية. أما وقد مضى العديد من السنين على هذه الترقيات السريعة فلم يعد واضحاً، الآن، في أي من البلدين جرى تعيينه وزيراً للخارجية: في اسرائيل أم في الولايات المتحدة الامريكية. غير أن باحثاً إسرائيلياً مرموقاً أشار، في مقالة له في احدى الصحف فيما بعد، الى أن رئيس الوزراء السابق، مناحيم بيغن، كان يعني

أفضال اسرائيل على هذا البروفيسور الامريكي، وأنه كان من الممكن ـ لو أرادوا ـ اغتصابه فضلاً عما سرقوه من أثوابه وركابه، فلم يفعلوا تفضلاً عليه، فيما عناه من الخدمات الجلّى، بالمال وبالبنين وبالحرمات وبالارحام، التي قدمتها اسرائيل منذ قيامها، وحتى قبل قيامها، للولايات المتحدة الامريكية، ولرسالتها الحضارية العالمية، مقابل بضعة من حديد ومن ذخيرة لهذا الحديد الذي يدب على الارض، أو يسبح في البحر، أو يطير في الهواء، ومنه سيارة البروفيسور وثيابه الداخلية، ونعومة بشرته المتشمسة من غير سوء.

كانت بداية الامر ظهر أحد أيام الربيع، في مستهل السبعينات. وكنت مسافراً، بسيارتي، من الناصرة الى عملي في حيفا. واخترت، كعادتي، «طريق الهدار» أو «حيفا الفوقا» فلم أكن اختار طريق «حيفا التحتا»، المكتظة بالسيارات في النهار، الا في أيام السبت، حين يتركوننا نسرح ونمرح فنقع فرائس سهلة، سارحة مارحة، لكمائن شرطة المرور التي لا تشاء الا ان تكمن لنا في السبوت.

انتهجت، اذاً، طريق «حيفا الفوقا». وذلك بعد أن عبرنا «جسر شل»، الذي أصبح «جسر باز» (والبترول واحد)، من تحته. فشارع «هجيبوريم» ـ يعني «الأبطال» الذين «طردوا» عرب وادي روشميا من بيوتهم واكواخهم. فجسر روشميا (من فوقه). ثم شارع «هحالوتس».

وهو شارع شقّه المستوطنون اليهود الاوائل في حيفا، وهو من اوائل حاراتهم على سفح جبل الكرمل. وظلت الغالبية من أبنيته وحوانيته على حالها منذ «أيام العرب» ـ ويعنون، بها، أيام الانتداب البريطاني عليها ـ سوى محطة بنزين وتوسيع دكاكين، واختفاء كشك صديقي اليهودي الشاب، وكلنا كان شاباً في «أيام العرب»، الذي كان يقف معي أمام باب كشكه، ويراقب المارين والمارات، ثم يتنهد ويقول: «آخ، يا خبيبي، من يتزوج كل هذه»؟

سمّوا هذا الشارع باسم «هحالوتس». ومعناه «الطليعي». فلا يجوز لنا، تاريخياً، ترجمته الى اللغة العربية كما فعل اخواننا اليهود بالعديد من الاسماء العربية العريقة في هذه المدينة، او بدلوها تبديلاً، حتى اصبح شارع الناصرة شارع «اسرائيل بار يهودا»، واصبح منبعه ـ ميدان الملك فيصل ـ أمام محطة سكة حديد الحجاز ـ «شارع خطيبات جولاني»، وهو خط عربي ركيك يقصدون به الاسم العبري «حتيفات جولاني»، أي فرقة «الصاعقة» العبرية

الشهيرة باسم قائدها الاول، جولاني. وكنت، قبل المامي بهذه العلوم العسكرية، اعتقد أن جولاني هذا هو دون جوان عبري له عشيقات يسمون، احتشاما، «خطيات». وهذا التبديل هو تبديل سخيف. ويثير الضحك من أي مصدر جاء. فقد أثار ضحكنا، مثلاً، حين جاء من فم طالب ليبي كان يتلقى العلم في جامعة ميلانو في ايطاليا. سألني، حين انتهيت من القاء محاضرة عليهم: «ما هو موقفكم من عملية تل الربيع؟». فضحك الطلاب الفلسطينيون، جميعاً، ضحكاً مجلجلاً. فلما استوضحت الامر قيل: ترجم اخونا «تل ابيب» الى العربية. اما في اسرائيل فقد تواضعوا على تسمية تلك العملية باسم «عملية الشاطىء» لا «عملية تل ابيب»، اذ انتهت، باختلاط الحابل بالنابل، واختلاط رصاص الشرطة الاسرائيلية بدماء ركاب الباص، امام «كانتري كلوب»، على بعد كيلومترين اثنين من قلب الدولة، تل ابيب. ولا يختلف مؤرخو حيفا، من اخواننا اليهود، عن هذا الطالب الليبي في النجابة المكتسبة، سوى أنه لا يستطيع سوى الترجمة، قولاً. أما هم فيترجمونها عملاً ايضاً.

أما الذي وقعت فيه أختي المغتربة، فمختلف جداً. كان ذلك حين التقيتها لاول مرة، بعد الغربة الاولى، في العام ١٩٦٦، في مدينة لارنكا الساحلية في جزيرة قبرص. فلما انتهينا من تناول الطعام بادرتني، تحبباً، بالقول: «تلاطما». فلم أفهم. قالت: أليست «تلاطما» كلمة عبرية تعني، بالعربية، شكراً جزيلاً؟ فمن علمها ذلك؟ قالت: اختك غير المغتربة. فلي اخت غير مغتربة. وهو أمر نادر بين الفلسطينيين. ففي أوائل الخمسينات سافرت أختي، غير المغتربة، الى عمان في عيد فالنتها. فلما تناولا الطعام شكرتها، دلعاً، بكلمة عبرية. قلت: الصحيح هو «توداه رباه». فأجابتني اختي المغتربة: فما الفارق ما بين تضاربا وتلاطما؟ قلت: الصحيح، يا أختي، انه لا يوجد فارق.

اما اذا أبقوا على اسمائنا القديمة، لم يبدلوها أو يجدعوا أنوفها، فلامر ما لم يفعلها قصير. ومثال على ذلك اسم «شارع صهيون»، الذي يهبط من «شارع الخوري» الى «حيفا التحتا» (شارع اللّنبي)، فهو من اسمائنا العربية القديمة، نسبة الى عائلة حيفاوية عربية عريقة. لم يبدلوه لا احتراما لتساؤل شكسبير العارف، في «روميو وجولييت»، «ماذا يهم الاسم»؟ بل لأنه يهم ويهم. بدّلوا

اسم «شارع الجبل» باسم «الامم المتحدة». فلما أمسكت بهم شتموا أباها قائلين: تسميه «شارع الصهيونية» دون أن يفطنوا الى وجود أطلال بيت عائلة صهيون، العربية الحيفاوية العريقة، في ذلك الشارع العريق. وخلدوا الاسم الجديد بأن نقشوه مرقّماً، من واحد الى اثنين وثلاثين، على صناديق القمامة في «شارع الصهيونية». فتقرأ على صندوق قمامة: «الصهيونية ـ ١٣»، أو على صندوق قمامة آخر «الصهيونية ـ ٢٣». وهناك صندوق قمامة، في هذا الشارع، اسمه «الصهيونية ـ ١». وهو رقم سيارة وزير الشرطة ايضا. وقد شاهدت هذه العجيبة، بأم عيني، كما شاهدت، بأم عيني، عجيبة أخرى من عجائبهم، وهو علم دولة اسرائيل يرفرف، بجلال وهيبة ونقاء، فوق سجن نابلس.

يغلب ضجيج السيارات، الآن، على أنين جبل الكرمل وهو يحمل، على ظهره، أثقال الحضارة. فأين يلتقي، الآن، صبية وصبايا حيفا؟ «وادي العشاق» أصبح زفتاً وقطراناً. و «البانوراما» سقفت. ودغلة أشجار الصنوبر الوحيدة كأنها الواحة، المطلة على جنائن البهائيين، أصبحت شققاً سقيمة للايجار. عمارة سويدان، الأيلة الى السقوط منذ ما قبل قيام الدولة، لم تسقط ولكنها طمرت في كومة من صناديق السكن الاسمنتية. مدرسة «سانت لوكس»، المطلة على البحر من سفح الكرمل الغربي، أصبحت مخازن عسكرية. وظل كوهين أفيدوف، الذي يفقأ العيون، يلاحق من يتنزه، من الصبية والصبايا العرب، في أحراش عسفيا والدالية.

ولكننا، اذا أصخنا السمع، نستطيع ان نسمع قهقهة جبل الكرمل، خفيفاً هازئاً بهذه الخربشة المثيرة للسخرية. لقد حولوا «ساحة الخمرة» الى «ساحةباريس»، ظناً منهم بأن الاسم العريق ـ نسبة الى عائلة الخمرة العريقة ـ يعود الى المحرمات. فأينا المخمور، أيها المتجهمون خلقة وخُلُقاً: المبتسم من بطن أمه، خلقة وخلقاً، لهذه النعمة، أم الجاهل بمحتدنا المخمّرا! لم يستطيعوا، لو يعلمون، الهروب منّا، فمنذ «ساحة الخناطير»، في الزمان الاول، كان آباؤنا «العربنجية» يتندرون على قبعات السائحات الاجنبيات، الفاقعة كأصص زهر اصطناعي مغبر: انها قبعات «باريسية»، وكان يُبلون بهن بلاءً حسناً. وعنهم أخذ هذه المهنة السياحية الآن، حمارة الناصرة. أي منذ «ايام اليهود».

قلت: كانت سيارتي، وهي السادسة في تعداد السيارات التي توقفت في

الصف الايسر أمام شارة المرور الحمراء، في انتظار الصفراء فالخضراء. وكان هناك صف، الى يميني، مؤلف من سيارتي باص وما وراءهما من سيارات. ولا أذكر عدد السيارات التي أوقفت وراء سيارتي، صفاً طويلاً. فقد كنت مهتمًا بما ينتظرني من شر هذا اليوم الذي تجاوزت فيه، بترتيب سيارتي، اطار تفاؤلي.

وظهر، من التحقيق فيما بعد، أن الضوء الاحمر أخلى عينه للضوء الاصفر، ثم للأخضر، عدة مرات، دون أن تنتبه، نحن جميعاً ـ من أمامي ومن ورائي ـ الى وقوع هذا الامر. وأعجب ما في الامر أن هذا الشارع، الذي يتميز بنفاد صبر السواقين فيه، وبخاصة في ساعات الزحمة، ظل هذه المرة صامتاً صمت كنيسة لاتينية في أثناء الصلوات السرية. كانوا، في العادة، يملأون الدنيا ضجيجاً بأبواق سياراتهم، وسباً وشتمًا بألسنتهم الذرية: برج بابل الا حين تشتد الازمة فتتغلب لغة الضاد على سواها من اللغات الحية. ناهيك عن ضجيج باعة الفلافل و «الشاورما» في حوانيتهم المزركشة، والمتواجهة من هذا الجانب ومن ذاك الجانب من الشارع في مصبه حماماً مفطوع الماء، أو خناقة غير منقطعة، ليل نهار. ويا لمصيبة سائق سيارة إن تلكأ في تسيير سيارته لدى ظهور الضوء الاخضر، لحظة واحدة، حتى لو كانت لحظة وهمية، فيعلو نفير السيارات وشتائم السواقين. و «هل انت نائم في البيت مع زوجتك؟». ويا «طور». ويتساوى اليهود والعرب، في الزحمة، في النطق باسم الحمار نطقاً عربياً فصيحا: «حمور» اولئك توكيداً بهويتهم وهؤلاء اخفاء لها. ولولا خوف مؤسسي الدولة ـ كما ارى ـ من انكشاف علاقتهم القديمة بالسافاك، لما تردد آباء المدينة في تسمية هذا الشارع باسم «سوق فارسي»، البازار. الا في تلك الزحمة، فان «شيئاً ما» استرعى، في وقت واحد، انتباه السواقين، والركاب، والمشاة، وباعة الفلافل، و«الشاورما»، وآكليها، وأخذهم اخذاً شديداً فسكنوا وصمتوا، لا حركة ولا نأمة.

فيما تتابع ظهور الضوء الاخضر، ايذاناً بالمرور، والحركة، وبالسباب وبالشتائم، حوالي نصف ساعة، دون أية حركة، أو أي احتجاج على انعدامها، حتى بلغ صف السيارات الواقفة، أو المنضمة الى السيارات الواقفة، جسر روشميا. ثم امتد الى ما وراء شارة المرور القائمة على تقاطع «حيفا الفوقا» و «حيفا التحتا» ـ شارع «هجيبوريم» (أي شارع «الابطال» الذي ألقوا، في بحر حيفا ـ عكا، بأهالي وادي روشميا ووادي الصليب) وشارع

«اسرائيل بار يهودا» (شارع الناصرة)، فإلى ما تحت «جسر بازه» (جسر شل)، والى ما وراء ذلك، فتجلط السير وانقطع عبر «حيفا التحتا» ايضا. فخرج ضباط البوليس، من مركزهم المحاذي لمخازن «دوبك» (قرمان، ديك وسلطي سابقاً)، الى شارع «اسرائيل بار يهودا» ليتفرجوا على هذا الازدحام العجيب، وقد أسقط في ايديهم فلا تسجيل مخالفات، ولا يؤتي هرجهم ومرجهم إلا ضغثاً على إبّالة.

ولم يعد ينفع «خطيبات جولاني» أنهم اقتلعوا نصب الملك فيصل من مركزه في وسط الميدان، وألقوا به بين مقابر آل مراد الرخامية، داخل السياج الحديدي المذهب لصق محطة السكة الحديد القديمة. فقد عجّت «حيفا التحتا»، جميعاً، بالسيارات المتجلطة. «شارع الملوك»، الذي أصبح «شارع الاستقلال»، ودخله بحارة السفن الاجنبية فأفسدوه، في النهار وفي الليل، ارتج لسانه وتلعثم وتبلبل وأخذ يغمغم أن ناقلات البترول، اذا دخلت جادة أفسدتها. مات الملك. شارع «النبي يونا»، يونس (الكرمليت سابقا)، ابتلعه هذا الحوت. قطارات السكة الحديد أصيبت، هي ايضاً، بهذه السكتة القلبية. العمل في الميناء توقف. وأخذت السفن، التي كانت تنزل حمولتها في الميناء، تعول وتضج وتصفر، فيما كان حمالو الميناء يتراكضون نحو «شارع الاستقلال» ليؤاجروا في القاء القبض على مخربين قد يكونون هبطوا، في طائرات شراعية، كما قيل، وسط ذلك الشارع، لعلهم يظهرون في التلفزيون وهم يحمون استقلال الدولة.

أخذت جلطة السيارات تمتد وتمتد في شرايين المدينة وفي تلك الساعة بالضبط، التي كانت المدينة فيها تغلي بالحركة، كالمرجل أو كجحيم دانتي: ضوضاء، ضوضاء. فمن مناد ومن مجيب ومن تصهال خيل (سيارات) خلال ذاك رغاء (مع الغازات السامة المنفلتة من الانابيب العادمة في مؤخرات مئات السيارات). فلا ضوضاء ولا غازات سامة. بل أناس واقفون مشدوهون وفي عيونهم لحظة ترقب أشبه بنظرات جمهور يقف أمام شارة حمراء في انتظار شارة المرور الخضراء ليعاود الركض وكأن سياطاً من داخله تسلخ ظهوره كلما توقف. أضرب، يا «عربنجي»، أضرب! ماذا دهى المدينة؟ وناس يركضون نحو «شيء ما»، قد يكون حدث، لعلهم، ان شاركوا فيه ـ ولو بالمشاهدة ـ يتحررون من قيود «الروتين» وعلى رأسه هذا السلخ الداخلي: انني أركض يا «عربنجي»،

هذه المرة بمحض اختياري لا مدفوعاً بسياطك بل لعلي أتخلص منها الى الابد.
الى الابد! الى الابد!

وناس متحيرون بين الواقفين والراكضين. وبين الراكضين شمالاً والراكضين جنوباً. يركضون في هذا الاتجاه فيندمون فيعودون ادراجهم راكضين في الاتجاه المغاير. فيندمون. الدنيا «شارع الاستقلال». وقد توقف. فماذا يفعلون؟ بضعة قرويين غارقون في هذا السبات يحاولون استراق الخطو نحو وادي النسناس خوفاً من الضربة البوليسية العشواء، اعتقالاً أو انتقاماً. سائق تاكسي من دالية الكرمل يلعن الساعة التي قرر فيها أن يأخذ هذه «الكروة». سواقو باصات الناصرة وتاكسياتها تجمعوا، دون سابق اتفاق، في معطم «العبد». «العبد» أغلق، دون سابق اتفاق، أبواب مطعمة. وأخذوا يتلصصون على ما يجري في الخارج عبر النوافذ التي أسدلوا ستائرها. أما وادي النسناس فلم يعلم. ولذلك لم يعلم العاملون في جريدتنا وفي مطبعتها.

أما الدولة فلم تعلم ولم تستيقظ، كما قيل، الا حين بلغت الجلطة «الكانتري كلوب» على مدخل تل ابيب من طريق حيفا. وقع هذا الامر، أمام «الكانتري كلوب»، قبل «عملية تل الربيع» بخمس سنين أو أربع.

ولكنه وقع في الربيع.

ولم نستيقظ، نحن الواقفين بسياراتنا في المكان الطليعي، في شارع «الطليعة» («هحالوتس») الا حين بدأت حوامات الجيش الاسرائيلي تُنزِّل فوق رؤوسنا جنود البراشوت.

تركت سيارتي وهربت الى مكان عملي، فتعقب المحققون آثاري، حتى المكتب في اليوم الثالث. ولم يتم اخلاء الشوارع من السيارات المهجورة الا في اليوم الخامس. ولم يبدأوا بالتحقيق، رسمياً، الا في بداية الاسبوع الثاني.

حاول المحققون، في الاسابيع الاولى، التستر على أمرهم. واكتفوا بنشر البيانات «الغامضة» عن ان التحقيق «يتشعب»، وعن «ملاحقة عدة خيوط»، وعن «اعتقالات واعترافات» ستقود الى «اعتقالات جديدة». وأخذت أراجع تصرفاتي. وقد يكون غيري من «المتلبسين» فعل فعلي، وبخاصة حين جاء في بيانات الشرطة أن الدلائل تتراكم لتشير، بأصابع الاتهام، الى «مخربين» والى «دوافع أمنية». فما من عربي، في هذه الدولة، الا ويظن الظنون بنفسه: أن يكونوا يعتبرونه، بما في دخيلة نفسه، «مخرباً»، أو أن يكون ما يشعر به من قهر

مدعاة الى اعتباره، اذا ترامى الى أسماعهم أو بالحدس حدساً، وهم سيد الحادسين، «مخرباً» أو مرشحا لان يكون «مخرباً». أما «الدوافع الامنية» فانه يقف أمامها، من حيث جهله المطبق بها وبحدودها، ومتى تفيض ومتى تنحسر، موقف الاعتراف المسبق بالجريمة أو موقف «عروس النيل»، في الزمان الاول: الاستسلام التام لهذا الايمان والموت الزؤام المبرر من قبل الضحية أيضاً؛ اذ لا تتصور امكانية الكفر والالحاد بالنيل وبأمن اسرائيل. ومن هنا، على ما أرى، جاءت الشتيمة المصرية العذبة ـ «جاتك نيلة» التي أرى ان نترجمها الى العربية الفلسطينية الاسرائيلية (وفي «المناطق»): «جاتك دافعة أمنية».

كنا، في الجريدة، في بداية عملية «التحديث» أو «العصرنة» ـ كما سمينا الامر في هيئة التحرير. وكنا أنجزنا، في «العصرنة»، تقدماً عينياً محموداً من حيث ساعات العمل اليومي في الجريدة وان لا نكتفي بالعمل حتى الظهر بل انتقلنا الى العمل حتى ساعات العصر. فمن العصر تبدأ العصرنة. ومن الاكثار في الحديث، في الاجتماعات الكثيرة، يبدأ التحديث. وأمرهم شورى بينهم.

فضاعت الطاسة بأسلوب ديمقراطي ساوينا فيه بين المسؤول وبين المرؤوس، حتى أصبح المرؤوس مسؤولا عن أخطاء المسؤول فأمعن المسؤول في الشورى بينهم.

فتبرع أحد المحررين الشبان العصريين، في اجتماع شورى عقدناه عصراً، أن يقوم هو أيضا بتحقيق صحفي مرادف لتحقيق الشرطة المتكامل. فابتدأ بنا وانتهى بنفسه وبأحاسيسه.

كان يأتينا، تباعاً، بتقارير دوّن فيها، تفصيلاً، مشاعره ومشاعر من التقاهم من الاصدقاء حين سمعوا عن «جلطة المواصلات» لاول مرة. أين كان الواحد منهم حين وقوع الحادث، وفي أية ساعة، بالضبط؛ أي في أية دقيقة من تلك الساعة. وأحياناً كان يعين الثانية. فقد كان دقيقاً دقة كمبيوتر. وأجرى، بهمته، استفتاءات واسعة النطاق في الامر: ما هو شعورك في الوهلة الاولى؟ وما هو شعورك في الوهلة الثانية؟ أي على الطريقة العصرية الامريكية التي تشاهدها أحياناً، من على شاشة التلفزيون. ويسمونها «الشاشة الصغيرة». وتتميز بالدقة العلمية التي قيل ان الشرقيين يعجزون عنها. وهذا ظلم. وقد كنت شاهداً على ذلك.

فقد شاكرت في حفل شرقي خالص، بل عربي شرقي، في شرقي القدس، لتأبين أحد رجالات فلسطين، الذي اغتالته أيد آثمة في الخارج، عن عمر قضاه في الصمود والتصدي. واختاروا قاعة عصرية، من قاعات جمعية الشبان المسيحيين في شرقي القدس لا في غربها، مضافة لحفل التأبين.

فلما انتهوا من القاء الكلمات دعينا الى قاعة أخرى مُدت فيها موائد الطعام على الطريقتين الشرقية والغربية. أي التقى التوأمان على موائد الطعام. وتلك عادة ورثناها عن جودِ البرامكة، خصوصاً في مآتمهم - البرمكيين والبرمكيات.

وكنت أحسب أننا سنمضي الوقت، بين ازدراد اللقمة واللقمة، في تعداد مناقب الفقيد، وفي استشفاف الاسباب عما أصابه، وهوية المجرمين ومن أرسلهم، وعن مصير من كان يعولهم من والدين وزوجة وأولاد. فخاب ظني. واذا بالمؤبنين والمؤبنات ينشغلون بأنفسهم وبمشاعرهم: أين كنت حين جاءك خبر الخطب؟ أما أنا فكنت في لندن، وقد عدت لتوي من دكاكين ماركس وسبنسر بربيطة على الموضة. وقد أعجبت زوجي. وسعرها، على أناقتها، رخيص.

- أما أنا فكنت في باريس. كنت أصعد الدرجات الى «سويتنا» في الفندق حين سمعت اسم المرحوم يتردد، بالفرنسية يا اختي، من جهاز الراديو. فساورتني الظنون. قلبي أخبرني.

- أوه! لماذا لم تركبي «الاسانسير»؟

- لم أعِ ما كنت أفعل. وربما كان معطلاً.

- أما أنا فكنت في «الاسانسير». توقف في الطابق الرابع. «سويتنا» في الطابق السادس. دخل «أبو الهرم» الى «الاسانسير» متجهاً. كان صاعداً ليخبر زوجي. جاء الينا بالمرسيدس المسلح وقد تكاثرت في وجهه امارات الصمود. فانخلع ضلعي. حتى الآن أشعر بالألم هنا. جسي. جسي. آه أتوجع! مسكين زوجي. حتى اليوم لا يستطيع الخروج من هول الصدمة. ها هو. شوشو. أتذكر؟

ويتذكر شوشو أن «أبو الهرم» أبى أن يخبره بالمصاب الأليم وهما في الفندق. بل حمله في سيارته «المرسيدس المسلح» الى مكتب المنظمة. ولكن شوشو أحس بالخطب قبل ابلاغه به رسمياً. وهو لا يحب الحديث عن الأمر

خوفاً من عودة الآلام التي سببتها له الصدمة. لقد انخفض وزنه منذ ذلك الوقت. وهذا يكفي. ان طريقنا، نحن الفلسطينيين، طويل وشاق، وعلينا أن ندفع الثمن. أخ، يا بطني.

ولكن زميلنا، الصحفي الشاب والعصري، والحق يقال، لم يكتف بهذه الدقة في تفصيل المشاعر. فقد استطاع، بالاضافة الى ذلك، أن يبلغنا بما ارتكبه الشرطة المحققة من تحقيق في أثناء هذا التحقيق.

ونشرنا، في جريدتنا، أخباراً وتعليقات عن بعض هذه المرتكبات. ونقلنا عن الصحف الاخرى أخبار مرتكبات أخرى. واضطرونا الى نشر نفي لبعض ما كنا نشرناه. وبعضهم لم يكتف بالنفي بل قاضانا أمام القضاء. فحكم القضاء علينا بالجزاء - مبالغ باهظة اضطررنا الى القيام بما نسميه «حملات مالية» لجمعها من جيوب قرائنا، وأصدقائنا، وعلى رأسهم العمال وغيرهم من الفقراء. حتى اكتمنا جملة وتفصيلاً. فلما اكتمنا اكتمت بقية الصحف. ثم جاء «الاتفاق الاجماعي»، غير الموقع، على نسيان الحادث.

وكنا أفردنا، في هذه الأثناء، ملفاً خاصاً لهذه القضية، على الطريقة الصحفية العصرية. فأكله، على الطريقة العصرية، النسيانُ. فلما شرعنا في اجراء «تنظيفات عامة»، استعداداً لإصدار الجريدة يومياً، أحضروا الي هذا الملف، مع غيره من «المنسيات»، لكي نقرر في مصيرها. فكان ما بين أيديكم الآن.

٣ - الرامزور

كانت «نقطة الانطلاق»، التي أجمع على الانطلاق منها المحققون ومستشاروهم ومحررو الصحف المتخصصون بشؤون الشرطة (بالاضافة الى وكالة «عتيم»)، ظهور «شيء ما» في شارع «هحالوتس» ذي قدرة خارقة على تنويم السواقين، والركاب، والمشاة، وباعة الفلافل والشاورما، وآكليها، «تنويماً مغناطيسياً» في نطاق مستطيل امتد، بعرض الشارع، من نقطة التقائه و «شارع الأنبياء» حتى نقطة التقائه و «شارع هحبيوريم» فوق جسر روشميا بعدة أمتار. فهل هو الـ «يوفو» (شيء غير مفسر) الذي يظهر في سماء الولايات

المتحدة الامريكية وأقطار في أمريكا اللاتينية مرتبطة بها سماتياً؟ فاذا كان «يوفو» فهو «يوفو» من نوع آخر، «يوفو» شرقي. فإن «يوفو» الغرب، حين يظهر، يوقظ الناس من بيوتهم وأعشاشهم وحقولهم فارعين دارعين نحو الجبال العالية. انهم يلمسون «الشيء» لمس اليد. أما هذا «الشيء» فتأثيره، كما ظهر في شارع «هحالونس»، مختلف جداً. فقد أخذ ألبابهم وأسكتهم فسيح الصمت وعقد ألسنتهم وكم أفواههم وجمدهم وخشبهم ونومهم تنويماً حتى كأن على رؤوسهم الطير.

وبعد تذكر بروفيسور «مستعرب»، من أعضاء هيئة التحقيق العليا، واقعة غريبة مشابهة وقعت في «هذا الشرق» في الزمن الغابر وضمنها الرواة كتاب «ألف ليلة وليلة». بل عاد اليها، في ذلك الكتاب، ونسخها وأصر على تصنيفها، في ملفات التحقيق، مستمسكاً على جو «هذا الشرق» المنوّم. تلك كانت، كما تذكرون، حكاية مدينة النحاس التي دخلها الامير موسى فاذا «لا حس فيها ولا أنيس. يصفر البوم في جهاتها ويحوم الطير في عرصاتها. وينعق الغراب في نواحيها وشوارعها». لم يوقظها ـ قال البروفيسور «المستعرب» عضو هيئة التحقيق العليا ـ سوى الامير موسى. وهو موشي و «موشي» هو الدولة. فجو «هذا الشرق»، قال، منوم. فاذا تركنا شارعاً لباعة الفلافل والشاورما الشرقيين، من عرب ومن أشباههم اليهود، ـ قال ـ أصابهم الذي أصاب هذا الشارع. هذا هو حل اللغز ـ قال ـ ولا يوقظهم الا الامير موسى، وموشي هو الدولة.

فتنضح له عضو آخر من أعضاء هيئة التحقيق العليا، قيل انه شب في أحضان كيبوتس ولا يزال يرنو بطرف خفي، وضمير مستتر جداً، الى الحمائم في حزب «العمل»، على الرغم من نزوله عميقاً تحت الارض في مراتب المخابرات الامنية العليا.

قال إن من التجني على «هذا الشرق»، تجنياً قد يحمله كارهو اسرائيل على محمل العنصرية، اتهام جوّه، وحده، بقدرة السحر على التنويم. فان الجو في «ذلك الغرب» ـ قال بشجاعة حامية ـ نوّم الحسناء الناعمة فلم تستيقظ الا بقبلة طبعها الفارس الامير على جبينها الابيض الناصع.

أجد أنه من العبث الاسترسال في سرد هذه الوقائع التفصيلية، عما جرى من تحقيق فذ ومتكامل في هيئة التحقيق العليا. من العبث، بعد مرور هذا

الوقت الطويل على الحادث، أن أستعيد، هنا، الحجج الرصينة التي أوردها مندوب الاركان العامة، في هيئة التحقيق العليا، رداً على ضابط المخابرات الحمامي. فمع أنه ألقى حججه حجة حجة، وبين الحجة والحجة فترة استيعاب زمنية، كما لو أنه رسام مبدع ومذهل يشحط في اللوحة شحطة، ثم يبتعد عنها اعجاباً بشحطة نفسه، فالشحطة الثانية. وهكذا بين الشحطة والشحطة فترة استيعاب واعجاب ذاتي زمنية. فمع أنه فعل ذلك وتطوس، فان الخطأ في المقارنة ظاهر للعيان لا يحتاج الى أية شطحة ذهنية أو مرسمية. فلم يكن جو «ذلك الغرب» هو الذي نوّم الاميرة الغربية. انما فعلت ذلك ساحرة. والمؤسف في الامر أن مندوب هيئة الاركان العامة، في لجنة التحقيق العامة، استغل اغفال الراوي الغربي لهوية الساحرة لكي يتهمنا بها وأنها عربية أو من أصل عربي، ولم تنفع فيه ملاحظة ضابط شرطة كبير، ولكنه من أصل انجليزي، أنها ربما تكون ارلندية.

المهم ان المحققين نجحوا في تعيين الفترة الزمنية، التي استمر فيها جو «هذا الشرق» السحري مسيطراً على شارع «هحالونس»، فيما استمر تتابع الحدثان ـ الضوء الاحمر والضوء الاخضر ـ حتى أجزاء الثانية: ٢٤ دقيقة و٥٩ ثانية و٥٧ على ٦٠ من الثانية. لقد أصدرت لجنة التحقيق العليا بياناً خاصاً، في حينه، بهذا الانجاز الالكتروني الاول من نوعه منذ سقوط «البيت الاول». واعتبرته برهاناً على جدارة المحققين وجدية التحقيق وأنهم «أمسكوا بالخيط». ويقال إن هذا الانجاز هو الذي لفت أنظار وزير المعارف الى ضرورة تلقين أولاد اليهود علوم الكومبيوتر بدءاً بالصفوف الابتدائية. لقد ضحكت في عبي، حين صدر ذلك البيان المتكبر، على جهل هؤلاء المتمدينين الكومبيوتريين، بما حققناه وحدنا ـ أي قبل ظهور الكومبيوتر ـ في تاريخنا الغابر، من منجزات حسابية دقيقة فاقت، في دقتها وتفصيلها، ما حققوه في هذا الزمن وما يكونون يحلمون بتحقيقه.

فقد استطاع الرحالة المسعودي، قبل حوالى ألف سنة، في العام الهجري «خمسة وثلاثين وثلثمائة» بالضبط، تعيين عدد السنين والايام، حتى اليوم الاخير، الذي استغرقه خلق الارض أو عاشه أجدادنا المعمرون.

وكان أبو الحسن متواضعاً في العلم وأميناً على الحقيقة. فأورد حساباته وحسابات غيره حتى ولو كان الاختلاف بضعة أيام فحسب. فآدم، مثلاً،

«توفي يوم الجمعة، لست خلون من نيسان، في الساعة التي كان فيها خلقه. وكان عمره، عليه السلام، تسعمائة سنة وثلاثين سنة» دون زيادة أو نقصان.

وأما متوشلح بن أخنوخ، الذي «عمر البلاد والنور في جبينه وولد له أولاد وكان البلغر والروس والصقالبة من ولده، فقد كانت حياته تسعمائة سنة وستين سنة. ومات في أيلول» بالضبط. وفي زمن «أهوذ من ولد أفرايم، وخمس وثلاثين سنة خلت من أيامه، تم للعالم أربعة آلاف سنة. وقيل غير ذلك في التاريخ». وقد يكون الفرق بين ما أحصاه المسعودي، من سنين على اتمام خلق العالم، وبين ما قيل غير ذلك زهيداً ولا يزيد على بضع سنين، وشهرين، وثلاثة وعشرين يوماً، وست ساعات، او خمس ساعات، خلون من ذلك اليوم، زيادة أو نقصاناً. وقد فعلها المسعودي في أماكن أخرى التزاماً بالدقة وبحسابات الآخرين.

والمسعودي، على ما وجدت وبحثت واستقصيت، هو أول من أدخل الى عالم التأليف والنشر بدعة «جميع الحقوق محفوظة للمؤلف». فأعلن، في مقدمة «المروج»:

«فمن حرف شيئاً من معناه، أو أزال ركنا من مبناه، أو طمس واضحة من معالمه، أو لبّس شاهدة من تراجمه، أو غيّره، أو بدله، أو أشانه (أفسده)، أو اختصره، أو نسبه الى غيرنا، أو أضافه الى سوانا، فوافاه من غضب الله وسرعة نقمه وفوادح بلاياه ما يعجز عنه صبره، ويحار له فكره، وجعله الله مُثلَة للعالمين، وعبرة للمعتبرين، وآية للمتوسمين، وسلبه الله ما أعطاه، وحال بينه وبين ما أنعم به عليه: من قوة ومنعة، مبدع السموات والارض، من أي الملل كان والآراء. انه على كل شيء قدير».

ولم يكتف أبو الحسن بهذا الانذار الرهيب، الذي لم يُبق ولم يذر حتى يوم الدين، بل كان أيضا، أول من عيّن «آلية» تنفيذه اذ قال: «وقد جعلت هذا التخويف، في أول كتابي هذا وآخره، ليكون رادعاً لمن مَيلُهُ هوى أو غلبه شقاء. فليراقب الله ربه. وليحاذر منقلبه. فالمدة يسيرة والمسافة قصيرة». الى أين؟ قال: «والى الله المصير».

ركب المسعودي البحار، «كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن». وأصابه فيها من الاهوال ما لم يحصه كثرة. وجاب في الأفاق ودخل الهند والسند و «بلاد سفالة والواق واق من أقاصي أرض الزنج»، وعرج على بلادنا فلسطين

وزار «قرية يقال لها ناصرة من بلاد اللّجون». قال: «ورأيت في هذه القرية كنيسة تعظمها النصارى. وفيها توابيت من حجارة فيها عظام الموتى يسيل منها زيت ثخين كالرُّب تتبرك به النصارى».

ولكنه اختار، طريقاً الى «قرية الناصرة»، وادي «عارا» ـ وذكرها بهذا الاسم لا «عاره» كما نكتبها الآن ـ وعرعرة من عارا كما ان هذه العصا من تلك العُصية ـ فتجاوز، لسوء طالعنا، طريق الساحل وحيفا. ولو اختار هذا الطريق لكان خلّف لنا وصفاً دقيقاً لما كان موجوداً في حيفا، في زمنه من عجائب و «أحابيش صغار» كانت أغتنا، اليوم، عن أعاجيب بار يهودا، وهرتسل، وشبتاي ليفي، وحسن شكري، والصهيونية، وكفر الوزير ألون بوجودنا، وكانوا اضطروا الى حفظه مستمسكا قيّما من مستمسكات هيئة التحقيق العليا في هذه القضية العجيبة.

فقد كان، رحمه الله، شديد الملاحظة، مهتمّا بالتفاصيل، دقيقاً في وصف العمران والخراب، وتحديد الأعمار والعقاب، وملاحقة المنابت والمصائر. ولولا غلبة خوفي من عاقبة انذاره الرهيب على خوفي من غضب حكومة الوحدة القومية، بين الاشكناز والسفراديم، لأخفيت عنكم أفصح مثل على دقته وأمانته في ملاحقة المصائر وتعيين المهابط والمنازل. ولكن أمري لله. فان المسعودي، في «المروج»، جمع «ما ذهب اليه الجمهور من أهل الفقه والآثار»، وحققه فاستنبط، توكيداً، أن «الله أهبط آدم بسرنديب، وحواء بجدة، وابليس ببيسان». ولا يستطيع دافيد ليفي اتهامه بالاشكنازية. فهو، رحمه الله، «موروكي ابن موروكي». أي مغربي ابن مغربي.

ولا تعني هذه الحقيقة، بحال، أن ابليس استقر ببيسان، كما أنها لا تعني، بحال، أن ظهور ابليس، في شارع «هحالوتس»، هو السبب في «جلطة المواصلات» هناك. فابليس لا يظهر، لا يظهر لي على الأقل، الا في الليل. أما «جلطة المواصلات» فقد وقعت، كما تعلمون، في عز الظهيرة. أي فيما كانت الشمس في كبد السماء.

وابليس يظهر لي، في الليل فقط، في شكل عيون شارات المرور الضوئية، قبيل منتصف الليل وأنا عائد بسيارتي الى الناصرة عبر «حيفا التحتا» ـ شارع «اسرائيل باريهودا» في التقائه وشارع «هجيبوريم»، زاوية حادة يصبح ضلعاها شارعاً واحداً يمر من تحت جسر شل (باز، الآن) متجهاً نحو الناصرة

أو، يساراً، نحو عكا. في نقطة الالتقاء، هذه، نُصبت عدة عيون ومراكز لشارات المرور الضوئية. فاذا حملقت بي العيون الحمراء رمقتني، بطرفها عيون خضراء، الى يميني تغريني بأن أتقدم. فاذا العيون الحمراء، أمامي، تصفر. فتحمر العيون الخضراء الى يميني. فالاخضر أمامي والاحمر الى يميني، فيما ينتظرني، على بعد عشرين متراً، ابليس آخر تحت الجسر أرى عيونه تستشيط في وجهي غضباً أحمر أو أصفر كما لون النار. فلا أتحرك الا جماعة، أي حين تتحرك سيارات الى يميني، حتىّ ولو نحو الهلاك. فإن «الموت، مع الناس، نعاس» و «حط راسك بين الرووس وقل: يا قطاع الرووس».

وشارات المرور الضوئية يسمونها، في بلادنا، «الرامزور». و«رامزور» مزج كلمتين عبريتين، مع تصحيفهما، وهما «رام» ومعناها: العالي، المرتفع، الصارخ، و«زركور»، ومعناها الكشاف الضوئي. وعلى شاكلتها جاءت كلمة «رام كول» العبرية. وترجمتها «الصوت العالي»، وهي الميكروفون. واخواننا اليهود مولعون بهذا المزج والتصحيف والاختصار، ويعتبرونه آية في التحضر، وهو من عجائبهم.

فتكثر، في أسماء شركاتهم، بدايات ونهايات «أم». وهي اجتزاء كلمة «أمريكا». فهناك، مثلا، شركة «أم بال». ومعناها «أمريكا ـ بالستاين». و «أم كور». وهي شركة تصنع البرادات الكهربائية. فتركوا الرمز ـ «كور» ـ مبهمًا. فاما أن يكون من «كوربوريشين»، وهو «شركة»، واما أن يكون من «كور» العبرية، وهو البرد. فيصبح اسم الشركة «الامريكي البارد». وهو جائز اجتزاء كما قيل لي. والله أعلم.

ومما أذكره من أمثلة على «أم» الأخرة، «اسرام». ومعناها «اسرائيل ـ أمريكا».

وحين عادوا الى مصر، في إثر السادات، ركبتهم الظنون في معنى الكلمة الشعبية اللطيفة التي يتداولها المصريون، وهي «أمال»، فظنوا أنها اسم شركة أمريكية مالاوية، فطالبوا بتطبيع العلاقات معها، فأجابهم سائق تاكسي في القاهرة «أمال».

ويشتد التصحيف والاختصار والمزج حين يطلقون الاسماء الشتى على حركاتهم السياسية وحركات سواهم. فان «مباي» هو اجتماع الاحرف الاولى من «مفليجت بوعالي يسرائيل» (حزب عمال اسرائيل). و«مفدال» هو «مفلجاه

داتيت ليئومىت» (حزب المتدينين القومي). وأغدقوا علينا اسم «حداش»، ولا بأس به، وهو «حزيت ديموقراطيت لشلوم وشفيون» (الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة). و«ناحال» هي «نوعر حالوتسي لوحيم» (شبيبة طلبعية محاربة). و«تصاهال» هي «تصفا هجناه ليسرائيل» (جيش الدفاع لاسرائيل). و«تصادال» هي «تصفاه دروم ليبنون» (جيش جنوب لبنان).

و«الشاباك» هو الاسم «الرهيب» الذي أطلقوه على «خدمات الامن العامة» (شيروتي بيتحون كللي) ليثيروا الفزع في نفوس «عرسان النيل»، خصوصاً حين يجري التأكيد، قولاً وفعلاً، على الشبه المريب بين اسم «الشاباك»، في اسرائيل، واسم «السافاك» في ايران. ويختلف المستشرقون، هنا أيضاً، على حق البكورة: هل هو للبيضة أم للدجاجة. ويروى عنا أن أحد أوائل مستشاري رئيس الحكومة «لشؤون الاقليات»، ولنسمه ـ تصحيفا ومزجاً ـ باسم «أولو»، حاول أن «يشبكها» بيننا (من شاباك) فعجز فذهب الى «السافاك»، وكتب عنا تقريراً سرياً لفائدة «الشاباك»، و «السافاك»، و «السي آي ايه»، وهلمجرا الامريكية، فطردوه. فهبط في بيروت، فطردوه. فأراد أن يفرخ وأن يبيض في لَحَد. فاختى عليها الذي أختى على لُبَد. فأصبح مشيراً صحفياً. فأولو النعمة أولى بالمعروف. فهو «أولو» ونحن «حطابون وسقّاء و ماء» والزمن طويل.

و «حول» هي «حوتس لآرتس» (خارج البلاد). فنقول: قضى عطلته في «حول» وسافر الى «حول»، والثوب الذي تلبسه الست هو من «حول». وكذلك الحذاء وحريريات الداخل والخارج. ومدافع «ن.م.» ليست مدافع اسرائيلية سرية، كما قد يتبادر الى أذهانكم. بل مدافع «نيجد ميتوسيم»، اي «ضد الطائرات»، و «حيل رجليم»، اي «جيش المشاة». «وجاءني، بعد حرب ١٩٦٧، نسيب من قرية في الضفة الغربية، وقال: انهم، أي الاسرائيليين، يتغلبون علينا، أي على العرب، بالطائرات والدبابات. ولكنهم لا يقدرون علينا «بالمواشي». فما هي «المواشي»؟ فحرك السبابة والوسطى جارياً بهما على الارض حتى فهمت أنها «المشاة». وأعتقد أننا نتغلب عليهم، أيضا، بالسيف، والترس، وبالقصف الاذاعي، وبخلافاتنا على سعر السمك وهو في البحر، وبعدد الملوك والامراء والسياح من أهل البيت، والصحف والمجلات التي تصدر في لندن وباريس باللغة العربية إمعاناً في اقناع العرب بأن أرض الله

واسعة، وما ضيق سوى الوطن.

وهناك «المانكال» (المدير العام)، و «السانكال» (مساعد المدير العام)، و «المسكال» (السكرتير العام)، والسمسكال (مساعد السكرتير العام)، و «المتكال» (القيادة العامة)، و «الرمتكال» (قائد الأركان)، و «ال عال» (والى العلا» ـ شركة الطيران الاسرائيلية). وقد سبقت «عالية» بعدة سنين. قيل إن أصحابها، حين سمعوا بهذا الشبه، أجابوا: «بسيدو». وهي كلمة متداولة في اسرائيل انتقلت الى الضفة الشرقية، عبر الجسر، وتقوم مقام «لا بأس» بالعربية، أو «وعال العال».

وكان رفاقنا المصريون قد أوقعونا، في «أيام العرب»، في وقعة التصحيف والمزج هذه. استهوانا الاسم الذي اختاروه، آنذاك، لحركتهم ـ «حدتو»، وهو الاحرف الاولى من «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني» ـ فأخذنا نوقع شعاراتنا، التي كنا نخطها فوق جدران المنشآت العامة، ونهرب، باسم «ح.ش.ف.» حتى استدرجت أحد الادباء نحو الشعار فيقرأه فأتباهى أمامه ببطولتنا، ويتحدينا عسكر الانتداب: «أطلقوا سراح السجناء السياسيين». «اطلقوا سراح فخري مرقة ويحى هواش وزملائهما». «أطلقوا سراح رضوان الحلو». «ليسقط وعد بلفور». «ليسقط الكتاب الابيض». «لتسقط النازية». «افتحوا الجبهة الثانية». «عاشت فلسطين حرة مستقلة».

فسمعته يتلو، بصوته الرنان، «ح.ش.ف.»، حبر شوارع فلسطين، فسحبناها رأفة بمعارفه، ولكننا لم نسحب فلسطين ولم ننسحب منها.

ولم نبق حبراً الى وقت طويل، بل انتقلنا من تلك الحالة الى حالة استحمار غيرنا. ويعود الفضل في ذلك الى كبيرنا، ومعلمنا، محامي الشعب، حنا نقارة. فهو، رحمه الله، كان أول من علمنا فضل الرمز على المزج.

كانوا يلفقون تهماً على فلاح، ويسجنونه ويعذبونه حتى يتنازل عن أرضه فيفكوا اساره. وكثيراً ما كان محامي الشعب «يلحقه» قبل أن يورطوه. فيزوره في السجن. ويكون لا يحق للمحامي أن يحادث السجين بكلام سوى القاء السلام عليه، وطلب توقيعه على توكيل. ويرافقه ضباط السجانين عيوناً وآذاناً عليها. فاذا شط عن الكلام المباح استطاعوا أن يضبطوه. ولا يأتمنون على هذه المهمة سوى ذوي الرتب العالية، الضالعين في الركاكة. ويخفونها وراء صمت يحسبونه رهيباً أو غاية في الحصافة، والرصافة، والقطنة، والرزانة، و «سحتة

البوكر»، وفي اخفاء معالم البلاهة والتفاهة. حتى اذا تواجها، المحامي والفلاح، بادره المحامي هاتفاً بكلمة واحدة: «خشّب». فلا يفهمها الضباط الضابطون. ولكنهم يتظاهرون بأنهم يفهمونها فيمعنون في الصمت الرهيب. أما الفلاح الحبيس فيفهمها كما يفهم الارض تحت قدميه، والسماء فوق رأسه. أي: اصمت ولا تتزحزح عن أرضك وعن حقك. واترك الكلام، ما دمت في الحبس، لمحاميك. فيحفر الفلاح تلمًا بين شفتيه يحبس فيه ابتسامة رضاه عن نفسه، وعن محاميه، تنبت، في عينيه الغائرتين غور الزمن الغائر، سنديانة وزيتونة.

٤ ـ محامي الامة

أما المحامي العربي الشاب، الذي شاء سوء طالعه أن تكون سيارته «الجاغوار» ذات اللون الغامض، وهو يقودها، السيارة الاولى المتوقفة أمام «الرامزور» في نهاية شارع «هحالوتس»، ساعة جلطة المواصلات الشهيرة، فقد استرسل، منذ اللحظة الاولى، في الرد على استجوابات المحققين. بل دلق عليهم ما في سريرته وما في علانيته، ما هو مرتبط بالقضية وما هو في شؤونه الخاصة، دلقاً جعله، حين آن أوان الاعتراف بالجريمة، يعترف.

وأعلنت هيئة التحقيق العليا، في حينه، أن «المحامي المخرب» لم يكتف بالاعتراف، بل تبرع باعادة تمثيل الجريمة، دقيقة فدقيقة، على أرضها.

ما هي، بالضبط، الجريمة التي اقترفها؟

علمنا، فيما بعد، أن المحامي لم يسأل المحققين هذا السؤال. بل لم ينتظر منهم أي تحديد، لاية جريمة منسوبة اليه، لكي يُفلت لسانه الذرب من عقاله.

فلماذا لم يرفع رجله، إذاً، عن حابس السيارة، ويفلت لها العنان حين ظهر الضوء الاخضر أمامه في المرة الاولى؟ قال: لانني لم أكن راغبا في التيويل. فسجلها له أصدقاؤه في الخارج (حول) مثلاً يحتذى على حسن التخلص.

فما الذي، أو من الذي، أشغل فكره عن الضوء الاخضر في ظهوره له في المرة الثانية؟

لقد كانت «تي»، لا «ذي». كانت امرأة يهودية شقراء تلتزم في مظهرها الخارجي الاحتشام الاوروبي البشع، وتنادي بأن «الذوق في البشاعة»، أو «البشاعة هي الجمال»، وتتأنق، في دخيلتها، بمظهر «الغموض». فلا تفتح عيناً ولا تغمضها الا وتسمع أنها في «حول». أي سافرت الى خارج البلاد. واعتراف المحامي بأنها هي «الذي» أشغل باله عن الضوء الاخضر، في المرة الاولى، دفع هيئة التحقيق العليا الى منع وسائل الاعلام من الافصاح عن اسم المحامي تجنباً للافصاح عن اسمّ المرأة الغامض، حفاظاً على سمعة ذويها، وهم، كما قيل، من ذوي الطَوْل (أي في الباع) والحَوْل (أي في خارج البلاد أيضا).

قال: كانت سيارتها، «المرسيدس» البيضاء، واقفة الى يمين سيارته أمام «الرامزور» مباشرة. فجاذبته التحية وأطراف معرفة سياسية وحسب، فألهته عن رؤية الضوء الاخضر حين ظهوره ثاني مرة.

ـ ففي المرة الثالثة؟

ابتسم صاحبنا المحامي ابتسامة عرضها أطول من طوْلها، فسجلها له أصدقاؤه في الخارج (حول)، هي الاخرى، مثلاً يحتذى على حسن التخلص.

ثم قال...

هنا اختلفت الروايات في الكلام الذي نطق به المحامي جواباً على السؤال المحرج الثالث عما أفاه عن رؤية الضوء الاخضر حين ظهوره للمرة الثالثة. ملأ زميلنا الصحافي الشاب العصري ثلاث صفحات «فول سكاب»، ونصف صفحة، وثلاثة أسطر، وكلمتين، وعلامة تعجب، ونقطتين متتابعتين وراءها، وبقعة حبر من آثار بصمته المحبرة (وهذه الدقة تعلمتها من المسعودي) في نقل مختلف الأقاويل عن جواب المحامي، على أثر ابتسامة حسن التخلص الاولى، وعن تصرف المحققين معه، مما دفعه، دفعاً، الى الانهيار، بدءاً من تلك اللحظة.

أصر زميلنا الصحافي الشاب على أن ننشر في صحيفتنا، حالاً وسريعاً، أن أحد المحققين رد على ابتسامة المحامي المطمئنة بأن أدار له خده الأيسر، ثم لطمه لطمة أعادت خده الايمن الى مكانه الاول، ولكنها أوقعت المحامي أرضاً، كما جاء في النبوءات، فوقع المحامي في الشرك المنصوب له، وقعة الفجاءة، فانهار في رائعة الظلام، وأرسل من بين شفتيه أنهاراً من اعترافات لم

يُبق فيها ولم يذر. فسجلها له أصحابه في الخارج مثلاً ثالثاً يحتذى على حسن التخلص.

ففعلنا. نشرنا، في صحيفتنا كما لابد أنكم تذكرون، خبراً رئيساً عن تعذيب المحامي دون أن نذكر اسمه الصريح. وأطلقنا الشعار المرير: كفوا اللطمة عن محامي الامة، فوقعنا وقعة مالية ستظل تسدد فوائدها حتى الجيل الثالث، والرابع، من أبنائنا وبناتنا، ومن أحفادنا وحفيداتنا، ومن أبنائهم وبناتهم من بعدهم، ومن بعدنا، كما جاء في نبوءة وزير المالية الاسبق، بنحاس سبير، عن تسديد أثمان حرب «يوم الغفران»، وفوائدها، وفوائد فوائدها، حتى يوم الدين، وسؤال الديان الاعظم: ما الفائدة؟!

فلم يمض اسبوع على ظهور الخبر وذلك الشعار الدّبر، في الجريدة، حتى جاءنا انذار المحامي، من قبل محاميه، أن ننفي الخبر والشعار جملة وتفصيلاً، وأن نعتذر له وللشرطة عما ألحقناه بهما من آلام نفسية، ولزوجته ولزوجة المحقق ولأولادهما من آلام نفسية أخرى، ومن تشويه سمعة، ومن ايذاء في الرزق الحلال، هذا بانقطاع سيل الموكلين له في مكتبه، وذاك بتأخر ترفيته التي كان المدير العام قد أوصى بها الوزير وأرسلها الى مكتبه، وأن ننقد المحامي والشرطي، تعويضاً عن آلامهما النفسية وخسارتهما المادية، مبلغ نصف مليون دولار لكل منهما، أي مليون دولار للاثنين، بالنقد الاسرائيلي، عداً ونقداً دفعة واحدة. كل ذلك استناداً الى «قانون العيب» كما يسمونه في مصر، أو «قانون اللسان السليط» كما يسمونه هنا، أو قانون «الطعن بالذات الملكية» كما كانوا يسمونه في زمن الأتراك. فأسقط في أيدينا. فلا ذات يد ولا ذات جيب. فحملونا إلى المحكمة حملاً. فتحاملنا على ضيق ذات اليد وذات الجيب فاعتبرتها المحكمة تحايلاً. وغرمتنا يدفع أتعابها، اضافة الى دفع التعويضات المالية للمحامي وللشرطي عما ألحقناه بهما من تعاسة نفسية وتعاسة مادية.

فذهبنا الى المحكمة العليا وحجتنا أننا أردنا، بالخبر، الدفاع عن وطنية المحامي وانقاذه من شينة الاقرار بذنب لم يرتكبه، فإذا كان ارتكبه فمن شينة الانهيار تلقاء اللطمة الاولى. فاعتبرها محامي المحامي دليلاً على ضيق أفق الشيوعيين وستالينيتهم الموروثة، وتخشبهم العقيدي، وتفضيلهم التهريج الكلامي على النهج العملي والواقعي وعلى حسن التخلص. وشنّف آذان المحكمة، من قضاة ومن محامين ومدعين ومتدربين في مكاتبهم ومندوبي

الصحافة والاذاعة والمستشار والمستشارين والحرس وأفراد الشرطة باللباسين الرسمي والمدني، والمنظورين وغير المنظورين، الجالسين منهم على المقاعد، والواقفين منهم في زوايا القاعة الضيقة، أو المتكئين بمناكبهم أو بدبورهم على الجدران وهم يتأبطون أضابير من أوراق مكدسة تتساقط، وتتبعثر، كلما تحركوا لاستعادة هيبة أو لاشعاعها على من حولهم، أو تحركوا، لالتقاطها عن الارض، في هيبة مهيبة لا تخفى عن أنظار القضاة المشغولين في معركتهم المضنية مع أصحاب الأضابير المبعثرة الاوراق المكدسة في أيهما أغلب في الهيبة المهيبة. حتى اذا اشتد وطيس القتال بين الفريقين، تناوب التناوم لهم قاضي اليمين وقاضي اليسار، فيما استلقى لهم قاضي الوسط على قفاه حتى لا تبقى ورقة مرمية الا استعيدت في اضبارتها.

قلت: شنف محامي المحامي آذان المحكمة ببيت الشعر العربي القديم:

«ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له

اياك اياك أن تبتل بالماء».

فانذعر قاضي الوسط، وهب من نومته كأنه الملسوع. قال إن امعان «الاتحاد» في تزوير تاريخ حرب التحرير قد جرحه في الصميم. فمهما تنقولوا، قال، فلم يتهمنا منهم قبلكم بأننا ألقينا بعرب حيفا في بحر عكا وهم مكتوفون. تركنا أيديهم طليقة. فمن غرق منهم فلأنه لا يحسن السباحة، ولا يحق لكم أن تلومونا على ذلك، أو لم يجد له مكاناً في قارب. ويحق لكم ان تلوموا، على ذلك، الانجليز.

فثنى قاضي اليسار على دفاع قاضي الوسط عن حرب التحرير، دون أن يتحرك في استلقائه أو أن يفتح رمشاً لئلا يهرب من ذاكرته تاريخ. قال: صوموا وصلوا للديمقراطية وسبحوا بحمدها تسبيحاً، ففيما لم تدعنا النازية نهرب، لا في بر ولا في بحر ولا في جو، تركناكم أحياناً تهربون..

- لم نهرب، بل تركنا البلاد لأننا رفضنا الاعتراف بالدولة.

جاءت هذه المقاطعة من المحامي نفسه لا من محاميه. فاشرأب قاضي اليمين بعنقه وأثنى على صدق قوميته.

فاحتج محامينا على هذا التدخل. فأسكته «محامي الديمقراطية» - أي قاضي اليسار - مذكراً اياه بأنه موجود في اورشليم لا في موسكو. فأسقط في يد محامينا فسقط في موقعه قاعداً. فاسترسل محامي «الجاغواره» في قوميته الصادقة،

التي اشرأب لها عنق قاضي اليمين، فأبلغ هيئة القضاة الموقرة أن والده، الذي أعطاكم عمره، لما لم تحمله رجلاه على تنفيذ قرار رفض الاعتراف بالدولة، أبى لمدة ثلاثة أشهر بالتهام وبالكيال، أن يتسلم من الدولة بطاقة الهوية المدنية، خوفاً من أن تحمل على تحمل الاعتراف بها. ولم يتراجع عن هذا الإباء القومي والشمم الا بعد أن ضمن لشعبه الفلسطيني المشاركة في اللعبة البرلمانية. أي بعد أن حملوه الى الكنيست على الاكف، والسواعد، والخناجر، والخناجر، عضواً فلسطيني التطلعات، من قبل ٣٦ عاماً، فيها. وها نحن، قال، نعود ونلعب وما بُدلنا تبديلا.

لم تنفع، في حينه، مداخلات محامينا ومحاولاته رد القضاة عما وقعوا فيه من التباس. فأصدروا حكمهم الشهير الذي اعتبره القضاء الاسرائيلي دليلاً على مساواته بين المواطنين، لا فرق بين عربي ويهودي وبين مدني وشرطي - كلهم، في عيني القضاء، سواسية مثلما الصيادون سواسية في عيني السمكة.

واستشهدت وزارة العدلية به رداً على اتهامات لجنة «أمنستي» (العفو) «الدولية» دليلاً على أن المعتقلين هم الذين يعذبون أنفسهم بأنفسهم، ويكسرون أرجلهم، ويفقأون عيونهم بأيديهم لكي يشوهوا سمعة الاحتلال في العالمين. وكان الصليب الاحمر الدولي، بعد ذلك، لا يجد سبباً يدعوه الى الظن بهذه الحجة.

أما محامي «الجاغواره» فقد اعتبر قرار المحكمة العليا برهاناً على هيبة قوميته الفلسطينية النابعة من أصالتها. فلا هي شرقية ولا هي غربية ولا مبادىء له سوى فلسطين. فلما صرّح بها ولم يحد عنها، قال، أسرت ألباب قضاة المحكمة العليا. فأفرج ما بين اصبعي يده اليمنى في وجوههم علامة النصر، قال، فردوا العلامة عليه بأحسن منها انفراجاً.

وهذا ما نفاه محامينا نفياً باتاً. غير أن الحق يجب أن يقال. والحقيقة أنه رفع اصبعيه بعلامة النصر وهو خارج من لدن هيئة التحقيق العليا في حادث جلطة المواصلات، بعد أن برأت ساحته من أية مسؤولية عن الحادث. فقد شهد بذلك، أمامنا، زميلنا الصحافي العصري. ولكننا آثرنا كتمان هذا الامر عن قرائنا انقاذاً لسمعة العروبة من هذه المصيبة.

لقد أوقعنا محامي «الجاغواره»، والحق يقال، في حيص بيص. فما أن اعتقلوه بتهمة تعطيل المواصلات في اسرائيل، وهي في حالة حرب دائمة مع

العرب، تعطيلاً مقصوداً، حتى هب العالم كله، وعلى رأسه عالم العروبة، يحتج على ضيق ذرع الديمقراطية الاسرائيلية عن سائق سيارة، محام فلسطيني شاب واعد، تعطلت سيارته، برهة، أمام «رامزور»، فلفظته مخرباً.

كان نواب «حركة الخضر»، في ألمانيا الغربية، أول من أطلق موجة الاحتجاج العالمية. فلما نشر أنه متهم بالتخريب أسرعت حركة «الالوية الحمراء» في ايطاليا الى تبني قضيته. فاضطر، من باب حسن التخلص، الى التنصل من أية علاقة له مع الكرة الارضية.

فأنت، اذاً، انسان متسلل. فاضطر الى التنكر لأية علاقة له بالانسانية جمعاء.

ولكنهم لم يطلقوا سراحه الا بعد أن نشروا على الملأ تقريراً كاملاً عما جرى في أثناء التحقيق معه: سؤالهم وجوابه. ثم سؤالهم وجوابه. وهكذا حتى خروجه من قاعة التحقيق رافعا يده اليمنى باصبعي علامة النصر وهو ينشد قائلاً:

«ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له
إياك إياك أن تبتل بالماء»

وأبلغنا زميلنا الصحافي العصري الشاب أنه رأى، بأم عينه، ضباط البوليس يشيعونه رافعين أيديهم، هم أيضاً، بعلامة النصر هذه. وقال أنه مندهش جداً ولا يستطيع أن يفهم الداعي الى ذلك.

غير أن دهشته لم تطل زمناً. فسرعان ما أصدرت البيانات، في الداخل وفي «حول»، عن انتصار الديمقراطية الاسرائيلية ـ في الداخل: إن الديمقراطية الاسرائيلية دفعت وتدفع ضريبة وجودها. وفي «حول»: أنه يوجد في اسرائيل ديمقراطية فيما هي معدومة في سورية.

أما فتاة المرسيدس الشقراء فقد تضاربت أخبار الرواة عن مصيرها. وآخر ما بلغنا عنها أنها تعمل سكرتيرة لمبعوث فلسطيني في عاصمة اوروبية. وقيل إنها طلقت زوجها وانضمت الى الثورة، في «حول»، بعد أن اقتنعت، تماماً، بعدالة القضية الفلسطينية. وقيل إن المبعوث المذكور مقتنع بهذا الامر هو أيضا. وهناك، في الثورة، من يجزم بأنها هي التي دبرت جلطة المواصلات في حيفا تدبيراً.

ـ فهل فعلت هذا الامر بالاتفاق المسبق مع زميلها المحامي؟

ـ ابتسامة ذات عدة معان.

ـ فهل فعلتها مبادرة ذاتية؟

ـ ابتسامة ذات معنى واحد.

ـ فمن أي فصيل؟

ـ أنت تريد أن تأكل العنب أم أن تقتل الناطور؟

فامسك عن السؤال غير المباح وأنا أضرس بأسناني قهراً، واخرس جهراً عن قوم لا ينفكون يبلطون بحراً فيما تجري دماؤهم نهراً، ولا يضمرون الا لأنفسهم شراً، جواً وبحراً وبراً.

٥ ـ الملثم

أما هيئة التحقيق العليا فلم تنفك عن الامساك بالخيط الامني. وأبلغنا زميلنا الصحافي العصري أنها استجوبت العديد من سائقي السيارات المتوقفة، صفين، أمام «الرامزور»، بل عادت الى المحامي نفسه واستجوبته في وقت لاحق. وذلك على أثر ما جاء في أقوال السيدة بلومنتال، سائقة سيارة عجوز، كانت تقف بسيارتها وراء سيارة المحامي، عن أنها شاهدت مخرباً فلسطينياً شاباً، متلثماً بكوفيته الفلسطينية، يتأبط «كلاشينك» ويمر مسرعاً بين السيارات المنجلطة.

ـ فلماذا لم يستجوبوني؟

أجابني زميلنا الشاب قائلاً: ربما لعلمهم بأنك ستنكر هذا الامر حتى ولو شاهدته.

فماذا كان علي أن أقول لو استجوبوني؟

لم يستجوبوني. وقد يكون إحجامهم عن استجوابي راجعاً الى يقينهم بأنني لن أحجم عن الاعتراف بأنني كنت ذلك المسلح الفلسطيني، ولكنني لم أتلثم ولن أتلثم.

كان اهتمام هيئة التحقيق العليا بظاهرة المسلح الفلسطيني الملثم اهتماماً جدياً وواسع النطاق.

فلم تكن السائقة العجوز وحيدة في مشاهدة هذه الرؤيا. بل شاهدها، معها، وفي وقت واحد، شاب يهودي متدين كان يشتري سانذويتش فلافل من كشك الفلافل القائم في زاوية شارعي «هحالوتس» و«الانبياء». وقال ان المسلح اتجه، في شارع «الانبياء» يميناً، حتى اختفى عن ناظريه وهو ينزل في درج «الموارنة». وعلّق بائع الفلافل على كلام الشاب المتدين قائلاً إن المسلح نفسه عرج على طبق الفلافل، وأخذ يتناول الحبة بعد الحبة. فلما اقترب منه ليوقفه عند حدّه أشهر في وجهه «الكلاشينك» وصاح: «اختطافه». فرفع بائع الفلافل يديه الى أعلى تسليماً. وبقي على هذه الحال دون تحريك أي ساكن في انتظار مجيء موشي ديان.

وصدرت الصحف، في اليوم التالي، بعناوين ضخمة عن المسلح الفلسطيني الملثم الذي ظهر في عز الظهيرة، واتجه من «حيفا الفوقاء» نحو «حيفا التحتا»، عبر «درج الموارنة» الذي جعل الشيوعيون من دار قديمة، قائمة في احدى زواياه، مقراً لهم.

ولما كان تخطيط هذه الخارطة الجغرافية صحيحاً، أي أنه يوجد ناد للشيوعيين في دار قائمة في زاوية من «درج الموارنة»، ولما كانت قيادتنا قيادة رصينة، أي غير متسرعة، آثر الشيوعيون الصمت على هذا الدس، خصوصاً وأنهم يعرفون أنه ما من دخان بلا نار. فلم يلفتوا أنظار الرأي العام الى وجود بيت دعارة، أيضاً، في تلك الزاوية.

وذهب زميلنا الصحافي الشاب العصري الى مركز شرطة حيفا، الذي لا يبعد عن «درج الموارنة» سوى بضعة أمتار، ليمارس سلطته الرابعة، فألقوا القبض عليه.

قال: جئتكم بنفسي.

قالوا: لا فرق. لو لم تأت لأحضرناك بالقوة.

قال: وما التهمة؟

قالوا: أنت الملثم.

فأنكر ذلك.

فقالوا: أو رأيته.

فأنكر ذلك.

فطلبوا منه أن يقدم اليهم كشفاً وافياً بأسماء أعضاء الحزب وأصدقائه

ومن تردد، في يوم من الايام، على ذلك النادي، أو من الممكن أن يتردد عليه في المستقبل. فرفض.

فصدرت الصحف المسائية بأخبار نارية عن القاء القبض على شيوعي كبير مشتبه بأنه هو الملثم الفلسطيني المسلح، وأنه يرفض التعاون مع المحققين رفضاً باتاً.

ولم يخلوا سبيله الا بعد أن أقام توفيق طوبي القيامة في الكنيست على وزير الشرطة. ورد وزير الشرطة على استجواب توفيق طوبي مصراً على أن الشاب رفض التعاون مع المحققين، وأن عناده هذا أثار ظنون المحققين، وأن هذا الشاب اعتقل قبل ١٥ عاماً، مع من اعتقل من أقرانه في المدرسة الابتدائية بتهمة اسقاط علم الدولة من فوق سارية المدرسة، بعد عشرة أيام من يوم ذكرى استقلال دولة اسرائيل.

ووجدنا، بعد خروجه من السجن، من اتهمنا بالتسرع في الدفاع عنه، في حين كان يجب أن نعلم أنه ذو ماضٍ «أمني». ووجد، هو أيضاً، من اتهمه بالعناد، وبزج حزبه في أمور هو في غنى عنها، وبسوء التخلص.

أما محامي «الجاغوار» فمضى في نهج حسن التخلص حتى نهاية هذا الطريق.

فلما عادوا اليه، يسألونه عما شاهده من ظاهرة ظهور المسلح الملثم، في رائعة النهار في شارع «هحالوتس»، قال إنه لا يستطيع أن ينكر الأمر.

- هل شاهدته؟
- من المحتمل.
- حدد اجابتك.
- انني متأكد من شيء واحد وهو أنه من المنتسبين الى جبهة الرفض.
- فهل تستنكر فعلته؟
- نحن ضد الارهاب من أية جهة جاء.
- حدد اجابتك.
- نحن ضد هذا العمل الارهابي.
- حدد اجابتك.
- نحن ضد هذا الفلسطيني الملثم، والمسلح، الذي ظهر في عز الظهيرة في شارع «هحالوتس».

وظهرت الصحف، في اليوم التالي، بعناوين صارخة عن المواطن العربي الاول في اسرائيل، المحامي الشجاع، الذي استنكر علناً عملية الارهاب «الاشافي» (نسبة الى «م.ت.ف.») تلك التي وقعت في عز الظهيرة في شارع «هحالوتس».

وتساءلت زميلتنا صحيفة «عل همشمار»: لماذا لم تسمع صوت صحيفة «الاتحاد»؟. أين لجنة رؤساء السلطات المحلية العربية التي لا تدين سوى مجازر دير ياسين، وكفر قاسم، ورفح، وخان يونس، وقبية، ونحالين، والسموع، واربد، وقطع أرجل وسيقان رؤساء البلديات في «يهودا والسامرة»، وغارات جيشنا على مدارس البنين ومدارس البنات، ثم تصمت صمت أهل القبور على ما تتعرض له الدولة كلها من خطر الفناء بفعل ظهور ملثم فلسطيني مخرب في فناء شارع «هحالوتس»؟

فخف العديد من الرؤساء الى التبارز فيما بينهم على أيهم أحسن تخلصاً من هذه الورطة من زميله، وأشدهم اخلاصاً لمبدأ المساواة بين الناس، معتدين أو معتدى عليهم، ظالمين أو مظلومين، حتى كأنهم أسنان مشط واحد. لم يكتفوا بادانة جريمة المسلح الفلسطيني الملثم على ظهوره، ظهور لمح البصر، في شارع «هحالوتس». بل أرسلوا طلاب مدارسهم للمشاركة في البحث عنه. وأحدهم، وهو رئيس المجلس المحلي في قرية اسمها «غشب»، على ما أذكر، تبرع من جيبه الخاص، بمبلغ مليون ليرة جائزة للذي يقبض على الملثم الفلسطيني حياً أو ميتاً. وكان ذلك حين كانت الليرة ليرة، وكانت الليرة تنطح الليرة. وهو ما لم يحصل في اسرائيل منذ خراب الهيكل.

كان زميلنا الصحافي العصري الشاب، والحق يقال، ناقد البصر والبصيرة. ففقّح (أي أبصر) تململاً بين السطور، فيما نشرته الصحف عن استخذاء بائع الفلافل وزبونه الشاب المتدين، وغيرهما ممن كان شاهد المسلح الفلسطيني الملثم وأنكر الامر استخذاء. فكيف رفع هذا يديه استسلاماً، وكيف لم يطارده ذاك، وكيف تخشب مئات اليهود السابلة في تلك اللحظة، الراكبة والراجلة، من هول المفاجأة؟

استمر التحقيق السري مع بائع الفلافل ومع زبونه المتدين، كلاً على حدة، أكثر من اسبوعين، فيما قام رئيس الدولة باستضافة السيدة بلومنتال وقلّدها، في حفل رسمي بهيج، وسام المشاركين في حروب اسرائيل لقاء

شجاعتها في الصمود والتصدي، على رؤوس الاشهاد، لظاهرة ظهور المسلح الفلسطيني الملثم في قلب مدينة حيفا في رائعة النهار. فلما ذكرته بأصلها المشترك، وبأن عائلتيها تجاورتا سنين عديدة في السكن في حي أوروبي من أحياء جوهانسبورغ، في جنوب افريقيا، قلّدها قبلة أخوية، وهمس في أذنها: «مش وقته». فضحكت وهمست في أذنه أنه «شيطان». فحملتها الصحف دليلاً على شعبية رؤساء الدولة.

ولم يطلق سراح الشاب اليهودي المتدين، الذي كان يشتري ساندويتش الفلافل، الا بعد تقديم الشهادات عن رؤية الصحن الطائر، والسيف المسلول من تحته، وهبوط لابس «الشنطة» عليه. فقد عاد هذا الشاهد وأعلن ـ وذلك ما جاء في الصحف في حينه ـ أنها المرة الاولى التي يلتقي فيها عربياً وجهاً لوجه، ولذلك اختلط أمره عليه.

وبررت الصحف هذا الجهل العجيب بأن هذا الشاب المتدين لم ينضم الى جيش الدفاع الاسرائيلي، ولذلك لم يشاهد عربياً، حياً أو ميتاً.

وأبدى الشاب المتدين دهشته حين أبلغه المحقق أن شوارع اسرائيل ملأى بالعرب. وقال: هل يرتدي العرب من الثياب ما نرتدي؟ فأجابه المحقق: رجال الدين منهم. وبناتهم؟ قال: يخلعون ما تخلع بناتنا. فانخلع صلع في صدره.

أما بائع الفلافل فلم يطلق سراحه، الا بعد زوبعة في فنجان، أثارها وزراء من السفراديم ومن حزب المتدينين (المفدال). وذلك على أثر قيام استاذ محاضر في جامعة بن غوريون في بئر السبع بانشاء بحث تاريخي ـ نفسي، (وهو اختصاصه)، نشره في صحيفة «هآرتس»، ألمح فيه الى ضحالة الاحاسيس القومية التي تعتمل، أو لا تعتمل، في صدور اليهود القادمين من البلدان العربية (السفراديم)، وأنها مكتسبة وغير موروثة. أي ليست أصيلة. لم يشاركوا ـ قال ـ في الموت في أفران الهتلرية في أوروبا. بل كانوا، في تلك الاثناء، يتآخون مع كارهي اسرائيل العرب في البلدان العربية. فوجدنا بناتهم ـ قال ـ يتهربن من خدمة العلم، مثلهن مثل بنات العرب وأبنائهم، فانحطت شجاعتهم الى مستوى شجاعة العرب، فآثروا الحياة على حياة الدولة ومواصلاتها.

وقبل إن ظهور هذا البحث أدى بالفريقين الى محو وصمة العار هذه بأساليب شتى. فأولئك تحولوا عن اعلان دافيد بن غوريون ملكاً على اسرائيل،

حياً حياً، الى تدهيب مناحيم بيغن ملكا على اسرائيل حياً حياً. وهؤلاء أرسلوا مناتهم، مدججات بالعوزي، لقطع الطرق في المناطق المحتلة على مصوري الصحف الاسرائيلية، والتلفزيون الاردني، الذي لم ينقطع، منذ ذلك الحين، عن تقديم صورهم مثلاً، حياً حياً، على ضرورة انقاذ ما يمكن انقاذه من الارض العربية قبل ضياع الضفة الشرقية، أيضاً أيضاً.

٦ - عطية

سقى الله أيام «أيضاً أيضاً». فتلك كانت أياماً حيفاوية أصيلة. وكنا، كما كانت حيفا، في شرخ الشباب، وميعة الصبا، نملأ بهما أسواقها وحواريها. وكانت تُسمع لنا جلبة. فطلب الحزب مني أن أعمل على توزيع صحيفته السرية، «نضال الشعب»، على رؤوس الاشهاد، لاول مرة، ومثلما يجري توزيع الصحف العلنية الاخرى في البلاد: ينادون عليها مرددين أهم ما فيها من عناوين أخبار أو تعليقات. وكانت أصوات باعة الصحف، من أولاد وشبان وشيخ مزمن هنا وهناك، تختلط بأصوات باعة ماء السوس المثلج، والتمر هندي، واللبن المثوم المثلج، و، في الشتاء، باعة السحلب الساخن و«التمرية» في الصباح - «تمرية، يا تمرية. الحبة أوقية يا تمرية» - في سيمفونية خلدها ريمسكي كورساكوف في معزوفته الباقية ما بقي الشرق والانسان، «شهرزاد».

تمرية، يا تمرية. في أي مخيم لاجئين، في بلاد العرب، حطت بك الرحال؟ أم أصبحت هناك، كما أمسيت هنا، مجرد ذكرى؟

كنا في أوائل العام ١٩٤٣. وكانت بريطانيا، صاحبة الانتداب على بلادنا، تجرجر مستعمراتها جرجرة نحو الحلف العالمي - مع الاتحاد السوفييتي - المعادي للفاشية. وكانت تتمنع عنه لو كان الامر وقفاً عليها. فقررنا أن نمتحن صبرها بأن نمتح هذا الحبل ببيع الجريدة السرية كما لو أنها مرخصة.

وكان موقعي في شارع العراق في ناد أسميناه «نادي الشعب». وكانت ... بعد، خيراً. فكنا قادرين، بعد، على التهندم سحنةً ولباساً وحذاءً. ... هذا الامر، أيضاً، محاولة منا أن نخفي عن أعين الناس ما كنا نحسبه ... الظاهر، هو صغر أعمارنا. كان لقب «الرفيق» اباحياً مستباحاً. وأما لقب

«الزعيم» فلم يكن مباحاً الا للزعماء. فأبحنا لانفسنا لقب «استاذ» سحنةً ولباساً وحذاءً.

وكان اهتمامنا منصباً على الحذاء خصوصاً، وذلك محاولة منا أن نمحو من أذهان الناس صورة مشوهة عنا دست في أذهان الناس دساً ضدنا. وهي أننا نحتذي الاحذية المهترئة عمداً. ونثقبها بأيدينا، ونخرج منها أصابع أرجلنا عمداً لكي نثبت، بذلك، أننا والناس الحفاة اخوة وسواسية.

وكانت هذه الصورة أشد تشوهاً في فلسطين نظراً لما كان «الطليعيون» من كيبوتسات «هشومير هتسعير» يتهادون به من أردية رديئة، ومن أحذية مهترئة، يخرجون منها أصابع أرجلهم ظناً منهم أنها من دلائل انتمائهم الطبقي الى جمهور المعادين للأفندية من العراة الحفاة، حتى أوهموا الناس بأن المساواة التي نسعى في سبيلها هي تساوي الناس في الفقر.

فكنت أحلق ذقني لدى دكان الحلاق «عطا»، في طريقي الى شارع العراق، مرة في اليومين شوبية. وكنت أمسح حذائي لدى الشاب «عطية»، في مطلع الشارع، مرة في اليوم مبدئياً. فتصادقنا.

فلما أتاني قرار الحزب بأن أعرض صحيفته السرية في الاسواق عرضاً علنياً لم تأتني حيلة سوى الشاب «عطية». فجئته.

قلت: كم تكسب في اليوم يا عطية؟

قال: عشرة قروش.

قلت: ضع صندوقك في النادي، وهاك عشرين قرشاً، ورح وزع هذه الجريدة على الناس، النسخة الواحدة بمليم واحد. وهي، أيضاً، لك.

قال: فكيف أنادي عليها؟

قلت: جريدة العمال.

قال: وهل للعمال جريدة؟

قلت: للعمال، أيضاً، جريدة.

قال: أيضاً؟

قلت: أيضاً وأيضاً.

فأخذ الرزمة وأخذ ينادي عليها لتوه: جريدة العمال يا ...

فحملت صندوقه واختبأت في النادي، فعاد بعد نصف ساعة مهشماً وهو يبكي.

قال إن الأساتيذ تخاطفوها. واجتمع عليه خلق كثير. فصاح صائحهم: هذه شيوعية. فهتف: للعمال أيضاً. فهم به شرطي. انتهره الشرطي سائلاً: ماذا تقول؟ قال: قلت «أيضاً». فلطمني على خدي. فصحت، متحدياً، «أيضاً أيضاً». فأعجبتني «أيضاً» هذه. فأخذت أرددها. فأخذ يردد لطماته ويرددها بعدي حتى أوقعني أرضاً. ولم يتركني الا بعد أن انتزع مني نسخ الجريدة وما في جيبي من ملاليم. فلماذا لم تخبرني، يا صاحبي، بأن «أيضاً» هذه ممنوعة؟ وما معنى «أيضاً» هذه يا صاحبي؟

قلت: ان معناها «كمان». فابتسم. كان صديقاً صدوقاً. فأصبح يلمع حذائي ثم يسأل: أيضاً؟ حتى جاءني يوماً الى النادي وطلب مني أن أعلمه القراءة «أيضاً». ففعلنا.

كان عطية من أبناء الجنوب اللبناني. وأصبح، فيما بعد، دباغاً في «سوق الشوام» في حيفا. وعايش «الاتحاد»، وشارك في توزيعها أيضاً، النسخة بقرشين. ثم اضطر الى الالتجاء الى وطنه. فهل هو عائش وأين هو عائش؟

كم من أثر لخوّ عطية أن ينقشه على جدران حيفا قبل أن يلحقوه ويمحوه ويمحوا آثاره. فمنذ أن فك الحرف فُكّت مواهبه الحبيسة. ومنها خطه الجميل. فكنا نشق عباب الليل ونحرسه من لصوص الامن والظلام فيما كان ينقش، بخطه الجميل، جدران «حيفا التحتا» بشعاراتنا النارية. لقد بقي شعار «أطلقوا سراح رضوان الحلو»، بخط فرشاته الحمراء، ظاهراً على أحد الجدران المحيطة بمحطة سكة الحديد القديمة حتى أواخر الخمسينات. وكنت أتقصد المرور من «شارع الناصرة» حتى أطمئن، بالاطمئنان على بقاء هذا الشعار، على عطية وعلى اخوتنا الذين التجأوا الى كنفه، فرد لهم الضيافة بأحسن منها. فقد ابتلانا الدهر، مثلما ابتلاه، نحن أيضاً. ثم ابتلاه هو أيضاً. وكانت «أيضاً» هي الكلمة الاولى التي فكها عطية. وكان أول من أدرك أن «أيضاً» هذه تتكرر أيضاً وأيضاً. فهل من الممكن أن تكون أنت، أيضاً، نسيتنا يا عطية؟

الدفتر الثاني

اخطية

«أرى خلل الرماد وميض جمر
ويوشك أن يكون له ضرام»
(نصر بن سيار)

«شيء عفن في دولة الدنمارك»
(مارسيلاس)

١ ـ عودة أبي العباس

كان بيت والدي عبد الكريم أول بيت شيد في جوار حدائق البهائيين، على سفح الكرمل الشمالي المطل على عكا. فلا يحول بينها سوى البحر.

وكان اليها عباس، بعد، حيا يرزق، وكان ذا بهاء. لا يخرج من داره الا في ساعة ثابتة، يوماً يوماً، من ساعات العصر، فيما كان حواريوه يسيرون وراءه على بعد خطوتين منه، صفاً واحداً، وقد عقد الواحد منهم ما بين كفيه، من أمامه، وطأطأ الرأس هيبة من هذا البهاء. فاذا توقف اليها عباس عن المسير توقفوا. ويكون ذلك ايذاناً منه بأنه سوف يتكلم. ولا يتكلم الا وهو واقف. ولا يحول وجهه نحوهم حين يكلمهم. ولا يجيبونه، اذا حق الجواب عليهم، أو على واحد منهم، الا ايجازاً، وبما يشبه الهمس وهم مطأطئو الرؤوس. فاذا عاد ومشى مشوا. فاذا عاد وتوقف توقفوا وأصاخوا السمع.

وعلقت هيبة هذا البهاء بالحي الجديد كله وبساكنيه، من كبار ومن صغار. فكان الناس يخلون الطريق لذلك الموكب اجلالاً. وكان الاطفال يبتعدون عن طريقه غاضين الطرف عن هذا المجهول: أسلم عاقبة. وكانت رهبة هذا المجهول تلاحقهم حتى حين كانوا يجرؤون على اختراق سياج الحدائق. وكانوا يخترقونها بحثاً عن أعشاش طيور. وكان حارس الحديقة البهائي يكمن لهم، أحياناً. فاذا انتصب أمامهم، فجأة، تسمروا في أماكنهم لا يقوون على الهرب. فاذا سألهم عما يفعلونه تلعثموا ولم يجيروا جواباً. فكان يدفعهم من أكتافهم، دفعاً خشناً، حتى عتبات بيوتهم. فيدخلونها صامتين. وتصمت أمهاتهم أيضاً. ولا يتذاكرون، فيما بينهم، أحداث هذه الواقعة. فكأنها لم تكن. وكان الشعراء من بينهم ينتظرون اكتمال البدر ليخترقوا السياج، وليقرأوا ابن أبي ربيعة، أو ابن الملوح، أو العبسي، أحياناً، على ضوئه. وكان الحارس يغض الطرف عنهم، في هذه الحالة، ولسان حاله يقول: يقرأون على بهاء البها عباس. فأطلقوا على الشارع الجديد اسم شارع عباس قبل أن تطلقه البلدية على هذا الشارع بخمس سنين على الاقل.

فاشتد خفقان قلب عبد الكريم لما أدرك أنه مطل على شارع عباس بعد غيبة ثلاثين عاماً.

فلما طال انتظاره، أمام «الرامزور»، وهو جالس في المقعد الامامي الى جانب سائق التاكسي، أغمض عينيه مخافة أن يظنوا الظنون بلهفته.

منذ أن وطأت قدماه أرض مطار اللد (بن غوريون) وهو يشعر بأنه غريب الديار، وبأشد من هذا الشعور مضاضة. ولكنه، الآن فقط، استكنه حقيقة هذا الشعور الأخر. لم يجرب، حتى الآن، شعور المتسلل الى بلد محرم على قدميه أن تطآه وهو موجود في ذلك البلد. ولكنه يحس الآن، احساس المتسلل، بالخوف من أن يضبطوه، في كل لحظة، متلبساً بحقيقة مشاعره. متلبساً أم متشبثاً بهذه الحقيقة؟

فحشر جسمه، بطوله الفارع، بين رموش عينيه متناوماً لهذا العدو. وأقعى له، بين الرموش، متحفزاً للانقضاض ما إن تبدر نأمة. كان فارع الطول ذا شعر أسود فاحم السواد على بشرة سمراء تكاد تقول للعدو: خذوني.

وكان في مطلع الستين من عمره. سليل عائلة تعمر ولا تصلع. تشيّب ولا تشيب. اشتهرت بالكد وبالكدح وبطول أذانها، وبالتصامم عن المذلة. كان في «زمان العرب»، يعمل في ورشة شركة بترول العراق (آي بي سي)، وكان يسميها «الابسية» مسايرة لزملائه. فرحل معها، في العام ١٩٤٨، الى طرابلس الشام (لبنان). كان، منذ أيامه في حيفا، يقضي للسيدة عبلة تماري «مهمات صغيرة». فانتقل، وهو في طرابلس، الى العمل في شركة مقاولات فلسطينية الاصل أسسها، شراكة، كامل عبد الرحمن واميل البستاني، واختارا لها اسم شركة «ك. أ. ت.» (كونتراكتورز آند تريدورز»، اذا لم تخني ذاكرتي. فبعثوا به الى السعودية وكيلاً عنها. فاختارته موظفة أمريكية، في مثل قامته طولاً وسنا، زوجاً لها. وأعطته الجنسية الامريكية وبيتاً وبنتاً واحدة، وأصرت على أن أصله من «ازرايل» لا من «بالستين». فهرب منها والتجأ الى مدينة ديترويت، حيث يكثر العرب والزنوج ويتكاثرون. وعمل في مصانع سيارات فورد أمام «قشاط متحرك». وأبلغ زملاء العمال، العرب والزنوج، أنه خلّف ـ في «الوطن» ـ ابناً بكراً اسمه عباس. وسوف يعود، في يوم من الايام، للبحث عنه. فناداه العرب بأبي العباس. وناداه الزنوج باسم «أباس».

وها هو اليوم عائد الى شارع عباس. ولكنه عاد ليبحث عن أمر آخر.

كان حريصاً، منذ أن هبطت طائرة «العال» على أرض المطار، وصفق ركابها الامريكان والاسرائيليون احتفالاً بهبوطهم سالمين في أرض الميعاد، أن

يخفي سر أصله وفصله. وهم بأن يقبل أرض المطار، مثلما فعل شاب أمريكي ذو لحية كاهن، ولكنه أحجم عن ذلك في اللحظة الاخيرة، مخافة أن ينتبه رجال الشرطة والمخابرات الى أن قبلته أصيلة لا اسخريوطية، بنوية لا بالتبني.

اختار أن ينام ليلته الاولى في تل أبيب امعاناً في التمويه على العدو. وقال في نفسه: فأخفف من لوعة النار في صدري. ثم سافر الى القدس ونام ليلته الثانية في «الاميريكان كولوني». وقال في نفسه: أفعل مثلما يفعل الطائر الذي يحوم بالقرب من عشه قبل أن يهبط. فأثقل الامر على جناحيه ولم يطق صبراً.

فسافر، في صباح اليوم التالي، الى حيفا عبر مدينة نابلس «دوز دوغري». وذلك بعد أن ترك حقائبه في الفندق المقدسي. فلما ضاق ذرعاً بالانتظار الطويل، أمام «الرامزور»، فتح باب سيارة التاكسي وخرج لا يلوي على شيء.

ألقوا القبض عليه، بعد خمسة أيام أو ستة من الحادث، فيما كان يتسكع جيئة وذهاباً في شارع عباس أمام سور الراهبات. وكان يحمل علبة صغيرة من التنك من تلك التي كانوا يملأونها بحلويات «الطوفي» الانجليزية في «أيام العرب».

وجاء في الصحف، فيما بعد، أنه انهار منذ اللحظة الاولى، فأخذ في التعاون مع المحققين بلا حرج، واعترف بجميع الجرائم المنسوبة اليه، وقادهم، طواعية بلا اكراه، الى مختلف الاماكن التي اقترف فيها جرائمه الامنية العديدة.

جرائمه؟

لنبدأ بالجريمة الاولى التي اقترفها، في هذه المرة، فكانت، في أيدي المحققين، أول الخيط في بكرة من الجرائم القديمة، الواحدة منها تقود الى جريمة أقدم منها. وهكذا حتى خروجه من بطن أمه من غير إذن.

فَحَسْبُهم أنه فتح باب السيارة وخرج منها الى وسط الشارع، في أوج الزحمة، دليلاً على فعل مريب. فما بالك وقد شهد عليه شهود عيان، من مواقع شتى في الشارع وفي آن واحد، أنه أقدم بعد ذلك على فعلة أشد اثارة للريبة؟.

كان أفراد الحرس المدني، في ذلك الوقت، في حالة من الاستنفار أقرب ما تكون الى الانهيار الذاتي. فاذا فرقع إطار سيارة تراكضوا من كل حدب وصوب الى اخلاء مكان الحادث من الناس. فاذا تعاقبت الفرقعة - بما وبما

ـ، وتكون خارجة من عادم سيارة مثقوب، طوقوا مكان الحادث ومنعوا الخروج منه أو الدخول اليه. وتبلغ اليقظة أشدها حين يقفون على أبواب قاعات العرض السينمائي، لا فرق في ذلك بين نهار أو ليل: يفتشون حقائب الداخلات وعيون الداخلين، وجيوبهم أحياناً. فاذا خرج خارج من قاعة العرض قبل انتهاء الفيلم المعروض وخروج الناس جميعا، طلبوا بطاقة هويته. فاذا صحفوا اسمه بأنه عربي سجلوا محتويات الهوية، وأثخنوه بنظراتهم المرتابة، حتى يرتاب بنفسه ويتصبب جبينه عرقاً. فتشتد ريبة المرتابين. وقد يستدعون الشرطة لإجراء المزيد من التحقيق. فاذا كان جاء الى دار العرض السينمائي مصطحباً صديقة ذات زوج أو ذات قيد، أو يكون هو المقيد، آثر العودة معها الى مقعديهما. أما اذا كانت صاحبته من أبناء عمومته أخرسته وأعلنت أنه زائر أمريكي. فاذا وجدت بين الحراس من يفك الحرف الانجليزي أعلنت أنه أمريكي أصم وأبكم:

ـ ويوجد أمريكان صم بكم؟

ـ يوجد.

ـ اصابة حرب؟

ـ حروب.

ـ فيتنام؟

ـ فيتنام.

ـ شكله عربي.

ـ وأنت شكلك عربي.

فيتضاحكان ويدعهما يبتعدان عن ناظريه كما الشر إبعدْ عنه وغنّ له. ويكون يصفر بلحن غناء أمريكي شائع.

٢ ـ مليحة

أما المحققون مع عبد الكريم أبي العباس فلم يضحكوا البتة. فقد شاهده شهود عيان وهو يقذف بنفسه من سيارة التاكسي، ويركض وراء فتاة كانت تجري في وسط الشارع ما بين السيارات المزدحمة، حافية القدمين وحاسرة

الرأس، عريانة الا من ثوب نوم أبيض ملطخ بالوحل ومزق عند الصدر، مشقق الطرف السفلي وهي تحمل، محتضنة في صدرها، طفلة في عامها الاول، عليها أطمار بالية.

ـ اخطية.

كان عبد الكريم أبو العباس هو الذي هتف بهذا الاسم الغريب فأثار دهشة المحققين الذين أحاطوا به احاطة السوار بالمعصم. وكان جالساً على كرسي من دون ظهر في وسطهم. فقام عن كرسيه وهو يهتف: اخطية. اخطية.

أطلق هذا الاسم الغريب ألسنة المستشرقين، والمستعربين، في لغط أكاديمي دفع رئيس الهيئة الى وقف التحقيق مع عبد الكريم، للتشاور المغلق فيما بينهم صوناً لهيبة الهيئة أمام المتهم المسكين الذي من المفروض فيه أن لا يرى من جسم الهيئة الا وجوهها الوحشية، وألا يراها الا وجهاً واحداً بفم لا يحتوي على لسان، بل على هراوة في مكان اللسان. وكان رئيس الهيئة يحافظ، بهذا القرار أيضاً، على هيبته هو نفسه أمام مرؤوسيه وقد توهم أن لغطهم الاكاديمي، الذي لم يفهمه، هو علم يقصر عنه فهمه.

كانوا سمعوا، من قبل «اخطية»، عن أسماء عربية غريبة. وأحدهم، ممن تعمق في السطحيات، قال انه لم يجد سوى في اللغة العربية أسماء هي من الفعل المضارع، من مثل يحيى ويزيد.

ـ ياقوت.

أطلقها الرئيس. ثم لام نفسه على هذا التسرع وهو في وسط الكلمة. فجاءت ياقووووت ـ ضغطاً على إبّالة. فتجاهلها الآخرون احتراماً لجهل الرئيس، أو خوفاً من أن يكونوا هم الجهلة.

وتذكر آخر، منهم، أسماء عربية على فعل الامر. من مثل «كفى». وهي ـ قال ـ من الاسماء التي يطلقونها على البنت التي تولد بعد ثلاث بنات، أو أربع، من البطن الواحد، لعل السميع المجيب أن يستجيب لهم ويعطيهم الصبي.

ويسمونهن تطيراً ـ قال ـ نهايةً ونهي.

واستشاروا قصاص أثر بدوياً محالاً على المعاش لكبر سنه كان يعمل في قص آثار المتسللين منذ نعومة أظفارهم. وكان جاهلاً كذاباً أخفى عنهم جهله، طول هذه السنين، بأن كان يقودهم الى أي بيت عربي تقوده قدماه التائهتان

اليه عرضاً، فتقع عليه واقعتهم. وكان يظن أنه ضحك على ذقونهم. وكانوا يضحكون على ذقنه. وكانوا عن ضمائرهم راضين وكانوا مرتضين به. فأخبرهم أن من أسمائهن أيضاً، في الحالة المذكورة أعلاه، «الزعلة».

أما «اخطية» ـ قال ـ فيذكر انه كان سمع جدته تصرخ في وجه والده: «اخطية»، حين هم بضرب ابنته الصغيرة (اخت الراوي الصغيرة) عقاباً لها على ايثارها اللعب مع الاولاد الذكور. ومعناها أن البنت «خطيتك». أو أن ضرب القاصر «خطيئة». وقد يكونون ـ قال ـ سموا تلك البنت «اخطية» أو «خطية» لانها ولدت سابع بنت، أو ثامناً أو عاشراً، أو حين هم والدها بوأدها.

ولما كان قصاص الاثر المتقاعد جاهلاً وزنديقاً ـ زنديق الأرض زنديق السماء ـ فلم يبلغهم بما لم يعلم. وهو أن الاسلام حرم وأد البنات. ونجح في الامر بقدر ما نجح في تحريم الحروب، وفي تحريم الجوع، وفي تحريم السبي، وفي تحريم انتهاك كرامة الناس، من ذكور ومن اناث.

فأقلت المستشرقون والمستعربون أقلامهم تعيث في تراثنا فساداً وفي ماضينا تمثيلاً. حتى تراءى لقرائهم أنه ما من جاهلية، في تاريخ الحضارة، سوى جاهلية العرب.

وكان أشد المتحمسين لهذا العبث المتعمد شبان أخذوا الدين عن بقايا مماليك. ففرضوا على بناتهم وزوجاتهم أن يرتدين الاكفان وهن أحياء يضجعن بما رزقهن الرزاق.

ولم يجدوا، في معمعة القضية الامنية، من يقول لهم: ليس كل ما حرمه الاسلام كان منتشراً في الجاهلية. فأين كانت العرب العاربة تجد، مثلاً، لحم الخنزير؟ كانت صعاليكهم تبحث عن الماء في القفاقي حتى تموت عطشاً، فأين كانت تجد الخمرة؟ ولو وأد العرب بناتهم في الجاهلية لانقرضوا. وهل كانوا يجدون متسعاً من وقت، بين غزوة رومية، وغزوة فارسية، وغزوة مغولية، وغزوة صليبية، وما بعدها، وحتى يومنا هذا، كانت تئد البنين والبنات وتئد المستقبل وهو في الارحام، لكي يئدوا بناتهم بأيديهم؟

ـ فأسدلوا على وجوههن البرقع والخمار الاسود وحجبوهن، جيلاً جيلاً، وحتى يومكم هذا.

إن من يصر على إسدال هذا الخمار على تراثنا الانساني المسفر هو ذو عقل أخف من عقل حمار. فتراثنا هذا هو ما خلّفه لنا الفعلة والاكارون لا ما خلفه

لنا مدعو الخلافة الأكالون النكارون. وكان سواد الشعب فَعَلة أرض: فلاحين وفلاحات. أكّارين وأكّارات. عراة الا من مئزر وفوقه طين الارض. فكيف ينفعهم برقع أو خمار؟ وأي حجاب يقيهم لظى الفاقة؟ حتى الكوفية العربية لم يتركها مسترسلة على الاقفية سوى «ريس» وتاجر وسيد في قومه. أما السواد، من فعلة، رجالاً ونساء، فكان يعصبها فوق رأسه اتقاء لحر الشمس ولنار القهر التي تلسع صدغيه من الداخل.

فاذا وقعت الحرب بين الأمين والمأمون، من أسيادهم، قاتلوا عراة الا من التبابين والميازر في أوساطهم، وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص وسموها الخوذ، وسموا، منذ ذلك الحين، بجيش العيارين. وهم الفعلة والحمالون والأكارون والأجراء، وفيهم يقول الشاعر الاعمى:

«خرّجت هذه الحروب رجالاً
لا لقحطان ولا لنزار
معشر في جواشن الصوف يغدو
ن الى الحرب كالليوث الضواري

واحد منهم يشد على أل
فين عريان ما له من ازار
ويقول الفتى اذا طُعن الطع
نة: خذها من العيّار»

فأين موقع الكوفية البيضاء من هذا الفتى العيار؟ حتى ولا الكفن.

ـ والخمار الاسود؟

ـ ماله الخمار الاسود؟ كان فرسان حضارتكم، في يوم مضى، يتباهون بحزام العفة. وكانوا يقفلونه على زوجاتهم، بالقفل وبالمفتاح. ثم يغيرون على أوطاننا وينتهكون أعراضنا بالسيف وبالصليب.

إن بقيت بضعة من نسائنا، في زوايا هذه المعمورة وأطرافها، يتقين الاعين الكاسرة بالخمار الاسود، فما له الخمار الاسود؟.

هل استطاع حزام العفة، عندهم، أن يوحي الى شاعرهم بما أوحى به الخمار الاسود الى شاعرنا فقال:

«قل للمليحة في الخمار الاسود
ماذا فعلت بناسك متعبد
قد كان شمر للصلاة ثيابه
حتى وقفت له ببات المسجد»؟
ماذا كان شاعرهم يقول؟
«قل للمليحة في حزام العفة
ماذا فعلت بناسك متعبد
قد كان أرخى للصلاة ثيابه
حتى شَمَرّتِ له بباب المعبد»؟

وكنا، في تلك الاثناء، نجري هذا الحوار في هيئة تحرير الصفحة الادبية من جريدتنا، وسميناه «الادب الجنائي» أسوة بما قرأناه عن «الطب الجنائي». وأذكر أن زميلنا الصحافي العصري الشاب أبلغنا لاول مرة في احدى هذه الجلسات، أنه من اصل بدوي عريق، وأمّا قصاص الاثر المحال على المعاش ـ قال ـ فليس سوى دعيّ ابن دعية. فان والدته سبية بنت سبية. وهو «بندوق» ولد سفاح. وكانوا يأتون بهن من فينيسيا ولذلك سميت بالبندقية. فما هو دليلك؟ قال: كتاب الانساب وقص أثر الأحساب. وما غاب عنه تجدونه في «الجفر». فقلنا: هل تؤمن بهما؟ فقال ما قال مما جعلنا نؤمن بأن العرق دساس. وكلنا فيه سواسية لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ به. وقد يرجع سبب هذه الأفة المستديمة الى تكرار مقتلة العيارين أية مقتلة. أولئك الذين لا من قحطان ولا من نزار، حتى لم يبقوا إلا على قيس ويمن الى يومنا هذا.

وشتمنا، بالطبع، الخمار الاسود والبرقع. وحجبوا زوجاتهم وبناتهم، فصاح شاعر حزام العفة: مساكين.

فلما انفض مجلسنا انتحيت واياه جانباً وسألته عما كان يعنيه. قال: مساكين لانهم، فيما يتظاهرون به من معاصرة، شأنهم شأن المقطوع من شجرة، أو الذي نسي قديمه فأضاع جديده. لست أدري ـ قال ـ السبب الذي جعلهم، في الجاهلية، يلقبون ربيعة بن عامر بلقب، «مسكين الدّارمي» فهو

لم يكن مسكيناً، بل كان ساكن الجأش مؤمناً بحرية مسكنه حين قال:

«واني امرؤ لا آلف البيت قاعداً
الى جنب عرسي لا أفارقها شبرا
ولا مقسم لا أبرح الدهر بيتها
لاجعله قبل المنيات لها قبرا
إذا هي لم تحصن أمام قبابها
فليس بمنجيها بنائي لها قصرا»

قال: ولا يختلف السواد المسكين، في الرد على صرخة الفاروق ـ متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احراراً ـ أن الناس يتألفون من الذكور ومن الاناث. ولا تلد الاحرار الا الامهات الاحرار.

ولم يكن السواد، في هذا الموقف، مسكيناً. بل كان، في قرفه الفطري من المرائين والكذابين، سكيناً تمزق غشهم وخداعهم. فهل رأيت مائدة أغنى وأشمل من «ألف ليلة وليلة» بما لذ وطاب من سخرية شعبية متوارثة على أزواج ذوات الحجاب والصون والعفاف؟ فإن الصحن الاساس، في هذه المأدبة، أو الخيط الذي لا ينقطع، في هذا البساط العجمي، هو السخرية القتالة بهؤلاء الذين يتوهمون أن الانسان، أي انسان، يقص جناحي ارادته الحرة بيديه، أو لا يتحين الفرصة للانتقام من سجانه أو للهروب من القفص حتى ولو لم يكن أمامه من مهرب سوى اشعال حريق.

لقد هام الامير شهريار على وجهه حين وجد زوجه تخونه مع حارسها الذي أقامه عليها حارساً. فمر، وهو متعب، بشجرة وارفة الظلال، قائمة على تلة بالقرب من شاطىء بحر، فقعد يستريح في ظلها. فاصطخب البحر بموجه. واذا بمارد يشق الموج وهو يحمل صندوقاً ضخماً. ففر الامير شهريار الى أعلى الشجرة مختبئاً. فخرج المارد من البحر وأخذ يفتح الصندوق ويخرج منه صندوقاً اصغر حجماً من الاول حتى الصندوق السابع. ففتحه فخرجت منه صبية حسناء كأنها من حوريات الجنان. فقعد تحت الشجرة والصبية الى جانبه. ثم أخذ يناجيها أنه يعشقها حتى يغار عليها من نفسه. فحبسها في سابع صندوق في سابع بحر لا يلتقيها، على هذه النجوى، إلاّ مرة في شهر. ثم وضع رأسه على ركبتها ونام وهو يشخر شخير المطمئنين.

فرفعت الصبية رأسها وأشارت الى الامير، المختبىء فوق الشجرة، أن ينزل أو توقظ المارد. فنزل وهو يرتجف كما لو أنه عصفور بلله القطر. فأزاحت ركبتها من تحت رأس المارد وأشارت الى الامير أن يواقعها أو توقظ المارد. ففعل. فأشارت الى خاتم ذهبي في اصبع يده أن يسحبه ويقدمه إليها أو توقظ المارد. ففعل. فأخرجت صرة كانت أخفتها في حزامها فاذا فيها خواتم كثيرة. قالت إن خاتم الامير هو الخاتم السبعون. وشأن كل خاتم مع صاحبه شأنها مع الامير، وهذا الجبار يحسب أنه مارد. فمضى الامير وفي قلبه بارقة من أمل أن يكون بنو الانسان أوفر حظاً من بني الجان.

فمر بحقل والتقى فلاحاً يحرث الارض، وقد حمل على ظهره صندوقاً أشبه بصندوق تلك الصبية. فطرح السلام عليه وقال: ولماذا لا تطرح هذا الصندوق عن ظهرك؟ قال: أضع زوجتي في الصندوق وأحملها في أثناء عملي خارج البيت حتى أطمئن على أنها مصون. فأبى الامير الا أن يرى الامر بأم عينه. فأنزل الفلاح الصندوق عن ظهره وفتحه. وأطلا على من فيه. فاذا زوجته مستلقية والى جانبها شاب تلاعبه ويلاعبها.

قال: وأنقى العرب، فطرة، البدوي والبدوية، فاياكم أن تستهزئوا بالبرقع وبالخمار فيصيبكم ما أصاب الحسن بن هانىء في خبره مع العبد الاسود، في «العقد الفريد»، وكانت وقعته مع بدوية.

ـ فما خبره مع البدوية؟

قرأناه في مصدره، في نبعه الصافي. فوجدنا أننا لا نقوى على نشره، هنا، الا ملوثاً بالشطب وبالحذف كما كان يفعل كامل الكيلاني، ومن قبله الآباء الجزويت، صوناً لما أصابنا من لوثة الغش والخداع والخفر والحياء، و «الاخلاق الحميدة».

قال: روى الحسن بن هانىء، قال: «حججت مع الفضل ابن الربيع. حتى اذا كنا ببلاد فزارة، وذلك ابان الربيع نزلنا منزلا بازاء ماء لبني تميم ذا روض أريض ونبت غريض تخضع لبهجته الزرابي المبثوثة، والنمارق المصفوفة. فقرت بنضرتها العيون، وارتاحت الى حسنها القلوب وانفرجت ببهائها الصدور.

قال: فلما انتهينا الى أوائلها اذا بخباء على بابه جارية متبرقعة ترنو بطرف مريض الجفون وسنان النظر. فقلت لزميلي إستنطقها. قال: وكيف السبيل

الى ذلك؟ قلت: استسقها ماء. فقالت: نعم ونُعمى عين وان نزلتم ففي الرحب والسعة. ثم مضت تتهادى كأنها خوط بان أو قضيب خيزران. فراعني ما رأيت منها. ثم أتت بالماء فشربتُ منه وصببتُ باقيه على يدي. ثم قلت: وصاحبي أيضاً عطشان. فأخذت الاناء فذهبت. فقلت لصاحبي: من الذي يقول:

«اذا بارك الله في ملبس
فلا بارك الله في البرقع
يريك عيون الدمى غرة
ويكشف عن منظر أشنع

«قال: وسمعت كلامي. فأتت وقد نزعت البرقع ولبست خماراً أسود وهي تقول:

«الا حَيِّ رَكْبَيْ معشر قد أراهما
أطالا ولما يعرفا مبتغاهما

«هل استسقيا ماء على غير ظمأة
ليستسقيا، باللحظ، ممن سقاهما؟

«فشهت كلامها بعقد در وهي فانتثر وبنغمة عذبة رقيقة رخيمة.. مع وجه يظلم لنوره ضياء العقول، وتتلف في روعته مُهَج النفوس..

«فلم أتمالك أن سجدت وخررت ساجداً. فأطلتُ من غير تسبيح. فقالت: ارفع رأسك غير مأجور. ولا تذم، من بعدها، برقعاً. فلربما انكشف عما يصرف الكرى ويحل القوى من غير بلوغ ارادة ولا درك طلبة ولا قضاء وطَر. ليس الا للحين المجلوب والقدر المكتوب والامل الكذوب.

«فبقيتُ، والله، معقول اللسان عن الجواب، حيران لا أهتدي لصواب. فالتفت إليّ صاحبي فقال لما رأى هلعي، كالمسلي لي عن بعض ما أذهلني: ما هذه الخفة لوجه برقت لك منه بارقة لا تدري ما تحته؟ أما سمعت قول ذي الرمة:

«على وجه مي مسحة من ملاحة
وتحت الثياب العار لو كان باديا؟

«فقالت: أما ما ذهبت اليه، لا أبالك، فلا

«ثم رفعت ثيابها حتى بلغت به نحرها وجاوزت منكبيها، فإذا قضيب فضة قد شيب بماء الذهب يهتز على مثل كثيب النقا، وصدر كالوذيلة عليه كالرمانتين، وخصر لو رُمْتَ عقده لانعقد، مطوي الاندماج على كفل رجراج، وسرة مستديرة يقصر فهمي عن بلوغ نعتها. من تحتها أرنب جاثم، أو جبهة أسد خادر. وفخذان لفاوان، وساقان خدلجان يخرسان الخلاخيل، وقدمان كأنهما لسانان. ثم قالت: أعاراً ترى، لا أبالك؟ قلت: لا، والله، ولكن سبب القدر المتاح ومقرّبي من الموت الذبّاح..». ولم ينته الامر على ذلك.

ـ وخبره مع العبد الاسود؟

قال: هو ذلك؟

أما عبد الكريم أبو العباس فقد عاد الى البلاد حين أدرك، في باطن باطنه، أن أمره مع «اخطية» لم ينته، ولن ينتهي.

٣ ـ اخطية

أدرك عبد الكريم أبو العباس هذه الحقيقة منذ أن رفضت طفلته، التي وادتها أمها، الا أن تسمّي فلسطين باسم «ازرايل».

أما الذي أفقده بقية من حذر، ومن حيلة، ومن رغبة في تحايل، فهو هذه المفاجأة التي فاجأه بها المحققون حين أبلغوه بخبر الفتاة التي ظهرت في شارع «هحالوتس» تحمل طفلتها، وتجري حافية القدمين، وحاسرة الرأس. وقالوا له انه شوهد وهو يجري وراءها.

ـ اخطية.

رمى اسمها في وجوه المحققين وهو مضطرب جداً، ومندهش جداً. فظن المحققون به الانهيار، وحسبوا أنهم وقعوا على الخيط الذي سيخرجهم من دياميس هذه القضية الى نور الحقيقة.

فكيف سيقنعهم بأن ما يدعون أنهم شاهدوه، عنها وعنه، ما هو الا أضغاث أحلام ـ أحلامه؟ وهذا هو الامر الخارق الذي لو اخترق دماغه لأصابه بالجنون.

فهو لم يشاهدها ولم يجر وراءها. ولكنه تمنى لو أن ذلك قد حدث.

وكان، حين أغمض عينيه تمويها، قد راها فيما يراه النائم من خيالات. ولكنه لم يكن نائمًا.

كان يفكر بها في قرارة نفسه. بل كان البحث عن مصير «اخطية» هو الدافع الباطني الذي دفعه الى ركوب المخاطر والعودة. ولكنه لم يجرؤ على البوح، بينه وبين نفسه، بدخيلة نفسه.

فكيف اهتدى اليها هؤلاء الناس ـ هؤلاء الناس؟ بل قالوا إن عدداً منهم شاهدها، وقالوا: حية تسعى؟ هل انتزعوها من صدره كما انتزع الخالق الرحمن من صدر آدم ضلعاً فاذا هو «اخطية»؟

«وبنى الرب الاله الضلع، التي أخذها من آدم، امرأة. وأحضرها الى آدم. فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي».

فهل يحضرونها الي كما أحضر الرب الاله حواء الى آدم؟ أو لا يقوى شعب الله المختار الا على مشاهدة خلق الله؟

اخطية.

عظم من عظامي ولحم من لحمي.

أم تكون خرجت اليهم، من صدري، كما خرجت مينيرفا من اصبع جوبتر لتهديهم الى المعرفة؟

اخطية.

هل ظهرت حقاً، بعظمي ولحمي، في الشارع تجري بين السيارات المزدحمة فيما كان هو مغمض العينين، تناوماً، فراحت عليه في اللحظة التي كان يتمنى فيها أن تظهر له ويلوم نفسه على تعاسته وعلى تعاستها به؟

أبكي عليك، يا عبد الكريم، يا الذي قضيت أحلى سني حياتك وأنت تبكي عليها بكاء داخلياً ـ دمعا يترف من القلب على القلب ـ كالدمل ذي الرأس الداخلي. وكنت تبكي على نفسك.

قالوا لك إن الناس، في الشارع، شاهدوك وأنت تركض في الشارع وراءها.

ـ أنا؟ يا ليت.

كانت هواجسك تركض وراءها. فهل كنت تركض وراء هواجسك دون أن تدري؟

ركضت وراءها، يا «أباس»، منذ أن ركضت هارباً من الامريكيتين ـ

الزوجة وابنتها. بل ركضت وراءها منذ أن قوّست قامتك لتعصر، من شدة الالم، مكان الضلع المنزوع من صدرك ـ عظمًا من عظمك ولحمًا من لحمك ـ فأصبحت كما «البوميرانج»، سلاح التسمانيين المنقرضين، تنطلق في الفضاء، تلف وتدور: شارع عباس ـ طرابلس ـ بيروت ـ السعودية ـ نيويورك ـ ديترويت ـ شارع عباس. تعود الى المنزل الاول. تعود الى الحبيب الاول.

فإذا اعترض «البوميرانج»، في انطلاقته، معترض ـ كيف يكون الفعل ورد الفعل؟

فكيف ستوضح الأمر للمحققين؟

أي أمر، يا عبد الكريم؟

هل حقاً، يا عبد الكريم، كنت تركض وراءها لتمسك بها فلا تخلي عنها أبداً أم كنت يا عبد الكريم تركض هارباً منها؟

ـ قل الحقيقة، يا عبد الكريم.

ـ الحقيقة؟ لم أجرؤ على البوح بها أمام نفسي، بيني وبين نفسي، فكيف أبوح بها أمامهم؟ ما شأنهم؟

ـ ما شأنهم؟

قد يكون عبد الكريم أبو العباس ناجى نفسه بهذه المناجاة قبل أن يفرج، أمام المحققين، عن مكنون صدره. وقد يكون اعترف بقصته من غير هذه المناجاة. وقد يكون عاجزا عنها.

فما شأني، اذاً، في أن أسترسل حتى أعتاب شأنهم؟

ـ قفي، أيتها المناجاة، اذاً.

«فلما شربناها ودبّ دبيبها

الى موقع الاسرار قلنا لها: قفي».

شربنا الماضي، سوية، حتى الثمالة. ونجدنا ندب الى أسرار المستقبل دبيب الثمالى. لقد استيقظنا. فما شأنهم لا يستيقظون؟ فهل هذا هو شأنهم؟ وحدهم؟.

قفي.

أما عبد الكريم فلم يقف، دون الاعتراف، طويلاً.

وذلك، كما نشروا في الصحف، منذ أن واجهوه بمحتويات صندوق «الطوفي» القديم الذي كان يحمله حين ألقوا القبض عليه.

أما ذوو الشأن من المحققين فلم يذيعوا على الصحف من اعترافاته سوى أنه ذو ماض، وأنه هارب من جريمة أخلاقية ارتكبها في زمن الانتداب، «أيام العرب»، وكان عقد أواصر علاقة غير شرعية بشخصية مشبوهة في اسرائيل عاد الآن لكي يصل ما انقطع منها وليحييها.

وظهرت، في صحف تلك الايام، حكايات عن صندوق كان مخفياً في فتحة من فتحات تسريب مياه الامطار، في سور مدرسة الراهبات العالي الذي يفصل ساحة المدرسة وأبنيتها الايطالية الفاتيكانية عن شارع عباس الشبيه، لولا أقماطه الاسفلتية، بمرتبة من مراتب الحصى والتراب التي كان جدي يسويها بين صف من أشتال الدوالي والصف الذي يعلوه منها في كرمه العالي في القرية العاصمة. فتكون مدرسة الراهبات أشبه بالعلية المشرفة على الكرم. وأما السور، بفتحاته ذات الشفاه المتفرجة عن توقع أبدي لما هو آت، أو عائد، فيكون أشبه ببرج من أبراج الحمام الزاجل ـ حمام قد يكون فر مذعوراً من ضجة غير مألوفة، طلقات رصاص، مثلاً. وها هو قد حط على سطوح المنازل القريبة، أو على سطوح المنازل التي أبعد منها، يمد أعناقه الصغيرة يصيخ السمع ويتنصت ويتنصت أملاً في أن تذوب الضجة، وتتلاشى، ويخفت رجع الصدى حتى لا يعود، فيعود.

كان عبد الكريم الامريكاني ـ وهذا بعض ما جاء في تلك الحكايات ـ يتبادل الرسائل طول أربعين عاماً، عبر فتحة من فتحات ذلك السور، مع احدى المخربات ممن قررت الجامعة العربية، في زمن أمينها العام عزام باشا، ابقاءهن في اسرائيل للتخريب على الدولة الناشئة من داخلها، ولتفريخ الاجانب والسرطان.

وقالوا ان عبد الكريم اضطر، حين ووجه بالحقائق الدامغة، الى الاعتراف باسم هذه المخربة، وان اسمها «اخطية». وقالوا ان ترجمته الى العبرية هي «حطأ». وهو، أيضاً، من «خطيئة». وهو من الاسماء المألوفة لدى اليهود أيضاً. ومنهم من دخل الى الكنيست وخرج. ومنهم من دخل الى سلك القضاء ولم يخرج. ومنهم من أدخلته خطيئته الى السجن. ومنهم من لم تدخله خطيئته الى السجن.

كنت، وأبناء جيلي الباقين في حيفا، نعرف عبد الكريم في الصغر. كان جاري. فلما وقعت الواقعة التي لم تبق في راسنا عقل، ومسحت من الذاكرة

الذكريات ومن عالمنا المعالم، نسيناه. فلما ردد اسمه في الصحف، وأنه من سكان شارع عباس في الأصل، تظاهرت أمام زملائي الشبان في الجريدة بأنني تذكرته خوفاً من أن يظنوا الظنون بأصلي وبعقلي.

فلما أشيع أنه ذو ماض تظاهرت بالابتسام ابتسامة ذي ماض يتستر على ماضي ذي ماض.

وقعدت مع نفسي أسائلها: أما كان يحق لنا ما يحق للاولاد في كل زمان وفي كل مكان؟ فكيف وقد كانت معالم شارعنا، أيضاً، في أول طلعاتها ـ كثة الاجمات صافية السحنات، تعرق صخورها بالينابيع وتحمر وجناتها، خفراً طبيعياً، بالنرجس، وعصا الراعي، وبغزل البنات، وبالبنات الغزالات؟

لم يختلف عبد الكريم، في ذلك الزمان، عنا الا في أنه سبقنا في النزول مع اخوته الى العمل وطلب الرزق صغيراً. كان، منذ ذلك الزمن، عاملاً ابن عامل وأخا عمال. وهو مما ندر في حارتنا حيث لم تخل عائلة من والد بقال أو من أخ كبير موظف. وكانوا ذوي صلات بالقرية التي جاءوا الى المدينة منها. وكان بعضهم يتكىء على هذه الصلات اتكاء ثقيلاً أو خفيفاً. وذلك بحسب قدرة المتكأ عليه. غير أنهم كانوا، جميعاً، يخفون هذه الصلات امعانا في التمدن أو اصراراً على اصالة حيفاويتهم، أبا عن جد. وهو صحيح أيضاً.

سوى عائلة عبد الكريم. فقد كانت، كما نقول الآن، «بروليتارية» أصيلة. فحين كانوا يسلسلون شجرتها العائلية كانوا يتوقفون عند ساحة البرج الذي بناه الظاهر العمر ويقولون: التجأ جدودنا اليه نجاة من مذبحة حيفا القديمة التي اقترفها الصليبيون. وكانوا الناجين الوحيدين من المذبحة.

وكنا، في ذلك الزمن، نهاب «بروليتارية» آل عبد الكريم الخالصة من غير أن ندرك كنهها. وكان عبد الكريم يستغل تهيبنا فيمعن في التظاهر بالاسترجال قبل أوانه. وكان من مظاهر استرجاله ادعاؤه سماع صياح الثعالب الجائعة، في الليل، وهي تقترب من خمّ الدجاج الذي أقاموه في محاذاة بيتهم، فكان يخرج اليها ليطردها غير هياب أو وجل.

كنا، يا عبدو، نتظاهر بأننا نصدقك. وكنا، بذلك، نتستر على أحوالنا. كانت المراحيض خارج البيوت. فكنا نضطر الى الخروج في الظلام لقضاء الحاجة. وكان بعضنا يعملها في «الارضية». وبعضنا في فراشه، ويتمارض ويتغيب عن المدرسة. وكنا نستغيبه.

وكانت بنات آوى لا تفك عنا في الليالي المقمرة. ولم تكن تهابنا. وكنا نسمع عواءها قادما من وراء الابواب المقفلة. وكان الليل، في حارتنا، يصمت حتى نسمع دقات قلوبنا وخشخشة أوراق عليقة تململ تحتها قنفد. فنحسبها تخشخش تحت أقدامنا. كان الليل، في صمته المطبق، شفافاً وموصلاً جيدا للصوت.

وكان موصلاً جيداً للضوء، أيضاً. هل تذكر ضوء القمر في الليالي المقمرة، كيف كنا نقرأ عليه المحفوظات؟ فهل كنت واحداً من «القمريين» يا عبدو؟

هل كنت واحداً منا، يا عبد الكريم، حين كنا ننزل الى البحر، مشياً على الاقدام، قبيل طلوع الفجر ـ أو في الفجر الكاذب ـ ونعود، مشياً على الاقدام، طالعين الى بيوتنا مع طلوع الفجر؟ لن تجد حيفاوياً أصيلاً الا استعمل كلمة «نزل» وكلمة «طلع»، كما استعملناهما منذ تلك الايام. فالنزول هو الخروج من البيت. والطلوع هو العودة الى البيت: نزل الى البحر ونزل الى المدرسة ونزل الى العمل. وطلع الى البيت. حيفا بنت الكرمل. وادي النسناس، المنخفض، من وديان الكرمل. وشاطىء البحر هو ساحل الكرمل. والكرمل هو كرم الله. والكرمل كريم لا تبخل أدغاله عن ستر العاشقين حتى ولو جاءوا من جميع أنحاء فلسطين ـ وكانوا يجيئون ـ فلا يملأون كوزه السخي.

ما كان أقصر الطريق بين شارع عباس وشاطىء البحر. وما أوسع الدنيا في ذلك الزمن. الكرمل كله لنا والبحر. حتى «جنينة عباس» كانت حلالاً علينا. دنيانا كلها كانت حلالاً علينا: السهل والجبل. البحر والبر والموارس بينهما. ما كنا نحمل معنا سوى رغيف وقطعة من الجبن. وكانت الوالدة، اذا ما استيقظت، تلف لنا «عروسة» من الخبز الرقيق المغمس بالزيت وبالملح، أحياناً. أما الخيار والفقوس فحلال علينا في مقاثيه. فاذا عطشنا استبطخنا.

هل تذكر الولد العفريت الذي اسمه فريد؟ لم يكن فريداً في ذوقه. ما كان يطيب لنا ثمر اللوز الاخضر، في أرض والده، الا سرقة. وما كان يطيب له الا أن يكون قائدنا ودليلنا في الغارات على حدائق والده. فلما أمعنا في استباحتها كمن لنا والده في مكمن لم يقع فيه سوى فريد. فلم يش بنا. فصاح به والده: ولكنه حلال لك. فقال: وأصحابي. قال: حلال لكم جميعاً.

وأينا، يا عبد الكريم، كان لوالده العاجز دكان يبيع فيه البرتقال

واليوسف أفندي وقطوف الدوالي، في مواسمها، وبقول البر من علت وخبيزة ومقرة وحورّة في مواسمها؟ فكنا لا نستذوق البرتقال الا سرقة من دكانه. فكان ابنه يلهيه بشأن من شؤون العائلة. ويكون هذا الشأن مختلقاً. فنمضي نحن نخطف حبات البرتقال من بسطة أمام دكانه، خطفاً لذيذاً.

كانت الدنيا حلالاً، وكان العيش فيها حلالاً. ولم نكن نعرف من الحرام ما نتجنبه سوى النميمة. وكنا نتجنبها مهما غلا الثمن.

فبأي ماض يهددونك بالكشف عنه، يا عبد الكريم؟ بما يسمونه، تعسفاً، بالحب؟ هل يعرفونه؟.

لو كانوا يعرفونه لأبقوا دغلاً بكراً نلعب فيه الغميضة. أو غيضة صنوبرية نسترق الحب اليها. أو سطح بيت خلوا من السواري والصهاريج كنا نتبادل فيه نقش أسمائنا المختارة، زوجين زوجين، ذكراً وأنثى كما خلقهما ربهما الخالق.

لم يكن في الحب الذي عرفناه من عيب سوى سذاجة تطرح سذاجة بني عذرة أجمعين في زوايا النسيان.

لم يطب لنا تعاطي الحب الا كما طاب لنا اللوز والبرتقال، الحلال علينا في كرومنا ودكاكيننا، سرقةً.

كانت الجيرة حلالاً، والجار من أهل البيت. وكان الجار ينتسب الى جاره. ولم يكن إعداد عجينة حلويات العيد وقفاً على النساء والصبايا، بل كان مشاعاً على الصبية أيضاً. وكنا نتلامس عفو الخاطر وعفو الموقع المتعمد وتصطدم نظراتنا في حوادث طرق مميتة تحبس الانفاس وتصرع الجانبين. وكانت عيون صبايانا مؤهلة لهذا الامر وراثة. الرمش كتوم اللون، والبؤبؤ عسلي القربى، والبسمة بيننا شفرة. وأما فم العينين فمتاهة بين الجفاء والعطاء تتوه فيها ولا تخرج منها سليمًا. وهو مما لا يتقنه سوى صبايانا وقد مضى وانقضى وذهب منذ أن «ذهب العرب».

وهذا ما كنا نسميه بالحب. وكان حباً جماً.

وكنا نجد اسمنا محفوراً على سطح البيت. فنحفر الى جانبه اسمها. فاذا التقينا في بيتها، أو التقينا في بيتنا، أخلصنا في صون هذا السر حتى تختلط علينا الاسماء المختارة، ونشك بصحة اهتدائنا الى هوية الحفار، فنأخذ بنا الظنون كل مأخذ. ويكون والدها موجوداً في هذا التيه، أحياناً، ويمعن النظر في الفضاء أمامه، ونكون بينه وبين هذا الفضاء، فنحسب أنه طلع على السطح.

ولما كانت الحاجة، حتى في ذلك الزمن البعيد، أم الاختراع، فقد اهتدينا الى عناوين أخرى أثبت في صون السر وأمنع على الالتباس في الاسماء.

هل تذكر، يا عبد الكريم، الشيخ المتسول العجوز الذي كان آباؤنا يحسبونه ضريراً؟ كان يقتعد نتوءا تحت صخرة في قاعدة سور الراهبات. ظل يتقي شرورنا حتى أصبحنا أصدقاء. ففتح لنا عينيه وصدره وعيه. فكنا نتبادل رسائل الغرام عبره. إلاّ أننا افتقدناه، يوماً، قبل أن نفتقد صبانا و «أيام العرب». تيتمنا منه. ولكن لم تُعدم الحيلة.

لا أذكر كيف اهتدينا الى العنوان الجديد ومن كان أولنا في الاهتداء اليه. غير أن الامر المؤكد هو أن جيلنا هو أول من اهتدى اليه لأن شارع عباس لم يعرف في مهده صبياً سوانا.

كان هذا العنوان الجديد هو فتحة من فتحات سور الراهبات اختار كل زوجين منا فتحة فيه في متناول أيديهما. وكنا نضع في الفتحة صندوقاً صغيراً مما كانت تباع فيه الشوكولاطة، أو «الطوفي»، في «زمن العرب». وكنا نتطارح آيات الحب عبره ـ رسائل نعفتها أو جرفتها الامطار والسيول أو عبث بها مرور الزمن على الذاكرة.

وقد تكون موجودة حتى الآن، في الفتحات العليا من السور بعد أن حفرت مدنية الاسفلت، في عمق السور، شارعاً أرادوه مستوياً فأبعد الفتحات عن متناول الايدي حتى أصبحت أشبه بأعشاش الحمام، زوجين زوجين، كانت تلتقي فيها قلوبنا على السرقة الحلال، كاللوز والبرتقال واليوسف أفندي، طي صندوق من الشوكولاطة أو «الطوفي».

فهل أمسكوا بك، يا عبد الكريم، متلبساً بهذا الصندوق بعد أكثر من ثلاثين عاماً من الانتظار فوق السطوح الأبعد من القريبة؟

هل وجدت العش سليمًا غير منعوف؟

هل كنت أنت، إذاً، صاحب اخطية؟

أنت، يا عبد الكريم؟!

هل، حقاً، اعترفت أمامهم بأنك والد الطفل الذي ولدته «اخطية» سفّاحاً؟

أنت، يا عبد الكريم؟!

وبعد هذا العمر الطويل؟

ما هذا الهذيان؟ أحفظ، عن ظهر قلب، ما قيل عن الخطية وأنها ستلاحق الخاطىء حتى تكشفه. ولكن خطيئة اخطية وقعت قبل نصف قرن.

فهل ظلت اخطية لا تنجب البنات، طول هذا العمر، الا سفاحاً فلا ينجبن الا البنات والا سفاحاً جاريات في الشوارع حافيات معفرات، منعوفات الشعر، عاريات مشحرات؟

ما هذا الهذيان؟

هل من الممكن، يا عبد الكريم، أن تكون التقيت اخطية، بعد مضي نصف قرن، أو احدى بناتها؟

عم جئت تبحث، يا «أباس»؟ عن اخطية الاولى ـ الخطيئة الاولى؟

ادعوا أنهم ألقوا القبض عليك وفي يدك صندوق «طوفي» صغير مليء بقصاصات صغيرة من الورق. فهل ظلت اخطية تراسلك، عاماً عاماً، دون من مجيب؟

هل وقفت، أمام السور، خمسة أيام بلياليها ـ كما قيل ـ منتظراً ان تظهر صاحبة الرسائل غير المجابة؟ فماذا كنت ستقول لها لو أنها جاءتك ـ اخطية الاولى؟

هل أنت اخطية الاولى أم الثانية أم الثالثة أم . . العاشرة؟

ولماذا أنت من دوننا جميعا؟!

فمن منا لا يتذكر اخطية ولم يعشقها حتى التلف؟

كان بيت اخطية مشرفاً على الدرجات الصخرية التي كنا ننزل فيها لنسرق اللوز من أرض والد فريد، أو لننزل الى البحر قبل طلوع الفجر.

كانت اخطية في العاشرة من عمرها حين قفزت من شرفة بيتها أو وقعت من الشرفة فوق صخرة من صخور الدرجات الصخرية.

أخبرتنا بأنك كنت ماراً من هناك في تلك اللحظة. قلت: قدري. حملتها الى باب دارها بين يديك وهي تتوجع ولا تشكو. ففتحوا الباب وأخذوها منك في جفوة كما لو أنك المسؤول عن وقوعها على الصخرة، فيما كان عليك أن تسبق الوقعة وأن تمد يدك فتقع بين يديك سالمة.

حسدناك، على الرغم من هذا التلكؤ، على هذا اللقاء. وأدمنا الرواح والمجيء أمام شرفة بيتها لعلنا نحظى، كما حظيت، بقفزة من قفزاتها أو بوقعة من وقعاتها ونكون أوفر حظاً منك وتكون أوفر حظاً بنا.

فوقعنا، الواحد منا بينه وبين نفسه، في حبها. وأوحشتنا وحشة بيتها الذي أغلقوه على أنفسهم دوننا ودون سكان الحي أجمعين. وهو أمر فريد وغريب في العلاقات بين سكان هذا الحي.

لولاك، يا عبد الكريم، ما علمنا بأن اسمها اخطية. فهل، حقا، هذا هو اسمها؟

٤ ـ سروة

أسدلوا الستائر على شرفة بيتهم ليلاً ونهاراً. فاذا اهتزت الستائر علمنا أن اخطية تقف وراءها. فاذا اهتزت الستارة اهتزازاً مريباً رنونا اليها فتلتقي عيوننا على عتب. وكانت اخطية تبعث الينا، بعينيها، رسائل في الشجاعة. أحبكم ـ كانت عيناها تقولان لنا. فاذا اشتدت البلاهة على نظراتنا، فوق أفواه مشدوهة ببلاهة أشد منها، فتحت الستائر على رحبها عنوة وظهرت أمامنا: سمراء ملتهبة، كما النار، في حلة حمراء كما النار ـ ثوب من الحرير الاحمر اللعوب وقلادة حول عنقها من العقيق الاحمر. فأنطقت واحداً منا شعراً لا أذكر الآن سوى مطلعه:

«هل رأيت النار في حلة نار
أم شربت الخمر في كأس محار؟»

فهل تحسب، يا عبد الكريم، أنك الوحيد الذي قذفته، حينئذ، برسالة مشبوكة بمشط مصنوع من عظم حيوان بري أو من خشب سندياناة؟

وكان مشطها يفوح برائحة بيتية، رائحة بيوتنا عشية عيد حين تكون صبايا الحارة رائحات غاديات يتعثرن بنا.

أو أنك الوحيد الذي تبادلت الرسائل معها عبر المتسول المتظاهر بالعمى أو عبر عش في برج الحمام الزاجل، في صندوق شوكولاطة صغير؟

أنت أهبل، يا عبدو؟ وما أهبل منك الا ضباط الشرطة المحققون، على من فيهم من مستشرقين، ومستعربين، ومستشارين، ضاقت ألبابهم عن أن يعرفوا عنا ما أنكروه على أنفسهم من ضعف انساني أقوى من صبر أيوب.

اختفت اخطية حوالي السنة. ولم تعد تظهر لنا أو لغيرنا فوق شرفتها.

وفجأة عادت وظهرت وهي تحمل طفلة بين يديها وسحابة من حزن في عينيها.

عادت اخطية تنادينا بعينيها الحزينتين.

فاستبدت بنا الظنون، وسمعنا خشخشة. وعادت الثعالب تعوي، في الليل، على عتبات بيوتنا. فلم نعد نبادلها النظرات بل نطأطىء الرؤوس خشية من خشخشة دقات قلوبنا، ونجري مسرعين هرباً من عواء في آذاننا أخرق. أحرقنا رسائلها. ودفنا أمشاطها السنديانية تحت السرير والقندول. ولم نعد نذكر اسمها في أحاديثنا حتى كأنها لم تكن أو كأنها مما يخرج عن مجال الكلام ـ لحن حرام على الدندنة أو صفير لا تقوى شفاهنا المشدوهة على اخراج روحه لئلا تخرج أرواحنا معه.

أنت أهبل، يا عبدو، وما أهبل منك سوى هذا الهبل الشامل.

فكلنا شعر بمثل ما شعرت من هم ممض، مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل، على قلوبنا من أعالي الكرمل، أو من موجة بحر عاتية طلعت على شارعنا طلوع الموت الفجائي ولما تنحسر. وذلك حين ترامت الى مسامعنا خشخشة أو عواء عن فضيحة ألمت بهذه الفتاة وعن أن اخطية ترفض الاستجابة لتوسلات والدتها، ولضربات والدها واخواتها، وتصر على كتمان اسم المذنب.

فمن يكون؟

أي منا لم يشعر، في تلك الايام، أنه هو؟

أي منا لم يشعر، في تلك الايام، بأنه جبان ورعديد لأنه لم يجرؤ على قرع باب بيتها، وعلى ابلاغ أبويها بأنه والد الطفلة، مع علمه بأنه ليس والدها، ولكن الواجب يدعوه الى ذلك؟

فهل تشيح بوجهك قائلاً: هذه ليست أختي، لو رأيت يا عبد الله في طريقك رجلاً «قد الجبل» يعتدي على طفلة؟

أما اخطية فكانت اختك، يا عبد الله. فكيف لم تهرع الى اغاثة مليحة سطا عليها غول؟

أي منا، يا عبد الكريم، لم يغض الطرف عنها ويُشِحْ بوجهه خوفاً من أن تعترف باسمه؟ ولكنها لم تعترف. ولن تعترف. ان اخطية من تلك الظواهر الكونية التي وجدت لكي يعترف الناس بها لا أن تعترف بهم. تبوح بأسرارك لها

فلا تبوح بأسرارك: دغلة في الكرمل استعصت على اسفلت. عليقة مجدورة في جنينة عباس. باحة منسية وراء فرن وادي النسناس. حائط مبكى في شارع العراق. صخرة بعيدة في تل السمك. نصب قبر منسي في حيفا العتيقة. مكتب أخي في شارع الملوك وغرفة ولدتُ فيها وفتحوا جدارها دكاناً في حسبة وادي النسناس، وأعشاش منعوفة في برج مدرسة الراهبات.

لا تذهب عنكم بل تذهبون عنها. ولا يأخذونها منكم بل يأخذونكم منها. يرحلون عنها ولا يعودون. أما هيّ فلا تعود لانها لا ترحل.

غير أن الذي أذهلنا ولا نعرف له تفسيراً، حتى الآن، هو ما شهد به أكثر من عابر سبيل وسائق سيارة يهودي أنه شاهد تلك المرأة، وفي حضنها طفلة، تجري بين السيارات المزدحمة. وأنهم شاهدوا ذلك الرجل النحيل الطويل القامة، كأنه السروة، يسري وراءها سريان لسان من نار فتنفر منه هاربة لا تلوي على نداءاته.

كان يناديها. وشهدوا بأنهم سمعوه يناديها. وقالوا إن صوته اخترق قلوبهم وقطع نياطها. فما شأن خيالهم في هذا الامر الخاص بنا خصوصية تأنيب الضمير؟

وكان جاء في الصحف، في مستهل التحقيق مع عبد الكريم، أنهم وجدوا، في صندوق «الطوفي» في العش في برج الحمام الزاجل، أكثر من أربعين رسالة موجهة منها الى «عبيدو»: رسالة واحدة في العام الواحد، من غير انقطاع منها عن هذا الامر ودون من جواب منه حتى يوم هذا اللقاء ـ القاء القبض عليه.

فهل أثارت هذه الواقعة شجونهم؟

أي شجون؟

لم يبق أمامنا من طريق سوى أن نحدس ونخمن، ونضرب اخماساً بأسداس. فبعد أن ارتوت الصحافة من دمنا، شأنها معنا حتى هذا اليوم، تناست قضية عبد الكريم جملة وتفصيلاً. وكل ما استطاع زميلنا الشاب العصري أن يجمعه من معلومات عن مصيره هو أن السلطات المختصة أبعدت عبد الكريم عن البلاد وأعادته الى الولايات المتحدة، مخفوراً حتى درج الطائرة، بعد أن أبلغته بقرارها منع دخوله الى البلاد مرة اخرى. فاذا حاول الامر، مرة ثانية، حبسته حتى يموت في الحبس.

وجاءنا، فيما بعد، وهو مذهول بخبر أذهلنا وأقعدني في مأتم الذاكرة. قال: هل تعرفون من هو «الرجل البندول»؟ قال: إنه شقيقه البكر.

ـ الرجل البندول؟

ـ الشبح الصامت الذي يروح ويجيء في حركة رتيبة، في هلال من دائرة، أشبه بحركة بندول الساعة. ولكنه لا يهل على حوارينا الا مرتين في اليوم: في ساعة ثابتة من الصباح. وفي ساعة ثابتة من العصر. وكان النسوة يعتمدن ظهوره، مجيئاً وإياباً، لتعيين مضي الساعات الرتيب الذي ازداد تثاقلاً منذ قيام هذه الدولة.

وهو «شخص» وحيد شوهد يدخل بيتاً قديمًا من البيوت القديمة القائمة في شارع عباس. فاستنبطنا أنه بيته. لا يزور ولا يزار. لا يتكلم ولا يطرح السلام فلا يُسلّم عليه. وسَلّمْنا بهذا الامر منذ أن عدنا ندب الحياة من جديد في بيوت ودكاكين كانت مساقط رؤوسنا، وموارد أرزاق أجدادنا، فإذا البيت قد هدموا جداره فأصبح دكاناً. وأصبح دكان بيع الخضار محلقة. ذهب عطا الدلول مع الذاهبين الاولين وأصبحت محلقته بقالة. الفرن الابيض أصبح كراجاً. وأما فرن وادي النسناس فورثه شبان ينادون على الواحد منا بيا عمي. وأعمامهم هؤلاء، لا يعرفونهم. وسلمنا بهذه الامور كلها كما سلم قسّ بن ساعدة الايادي بالحقيقة وبربها.

وسلمنا بظاهرة «الرجل البندول». وبأنه غريب الاطوار. وبأن لا طور له سوى طور واحد. فهو ينزل في الصباح ليحلق ذقنه لدى حلاق في وادي النسناس. ثم يختار حاجة يومه من طعام، ثم يعود أدراجه الى شارع عباس.

ثم نشاهده ينزل، في ساعة ثابتة من ساعات العصر، الى وادي النسناس مرة اخرى. يهبط في شارع الجبل ثم يعرج، يميناً، على زقاق الحريري فالوادي يصعد فيه حتى مطابع «الاتحاد» ودكان الجمال وملحمة الشفاعمري، ثم يلتف، يساراً، على شارع قيسارية ويمضي فيه حتى يعبر بيت أبي الياس فيتحول، يميناً، مخترقاً الزقاق المفضي الى شارع «المخلص» يسير فيه حتى آخره، معرّجاً على شارع «شبتاي ليفي» عائداً، صعداً، الى شارع عباس فإلى بيته.

طويل القامة، أطول قامة من شقيقه عبد الكريم الامريكاني. نحيل كأنه الشق. ولكنه لا يظهر للناس الا كامل الهندام، في الصيف وفي الشتاء.

يمشي التؤدة منتصب الفرع. وكم من صبية حسبته، للوهلة الاولى، شاباً يافعاً. والعجيب في أمره أن الناظر اليه، منذ أول ظهوره في وادينا، يراه وكأنه لم يتغير ولم يؤثر عليه مرور الزمن حتى كأنه «دوريان غراي». وهو لا يتمتم مثلما يتمتم من في سنّه ولا تصطك أسنانه وهو يلوك حسراته. وقد لا تكون بقيت في فمه أسنان. فما شاهدناه الا مطبقاً. وقد توقفنا عن مراقبته منذ زمن طويل بعد أن سلمنا بظهوره مثلما سلمنا بوجود سور الراهبات، حتى لم نعد نلحظ فتحاته، أو نلقي بالاً الى أعشاشه المهجورة.

تبعه زميلنا الشاب، يوماً، حتى دخل الى بيته في شارع عباس. فأمهله فترة تكفيه للعودة الى ذات نفسه، ولابعاد شبهة التعسس عن الزميل، ما يقرب من نصف الساعة.

قال: طرقت الباب عليه. طرقة فالثانية فالثالثة، فلم ينفتح. فأمعنت في الامر لا أنتوي التراجع وقد بلغت منه عتبة داره. واذا بالباب ينفتح، أخيراً، انفتاح الغضب.

واذا هو أمامي ماثل في ثيابه السوداء الرسمية، من الرأس حتىّ الحذاء، التي لم نشاهده بغيرها منذ أن أصبح مَعْلَمًا من معالم حياتنا في هذه المدينة.

قال: سألني، بجفاء، عما أريده منه. فعرفته بنفسي وقلت: أرغب في التحدث اليك. فسألني عن السبب. قال: فسألته، ألست أخا عبد الكريم؟

قال: فإذا به يصرخ في وجهي:

- بل أنا عبد الكريم.

وصفق الباب في وجهي.

□

كلنا عبد وعبده، يا عبد الكريم. عبدالله وعبد الرحمن وعبد الباري وعبد الخالق وعبد العزيز وعبد السلام وعبد الغفار وعبد القهار وعبد الوهاب وعبد الرزاق وعبد الفتاح وعبد الباسط وعبد الرافع وعبد السميع وعبد القدوس وعبد الحكيم وعبد الحافظ وعبد المجيد وعبد الحق وعبد الحميد وعبد الحي وعبد المالك وعبد الظاهر وعبد النور وعبد المعطي وعبد الغني وعبد الهادي وعبد المنتقم وعبد الناصر وعبد الصبور وبقية الاسماء الحسنى.

فهل اختلط هذا الامر علينا كما اختلطت علينا الامور كلها، يا عبد الكريم؟!

تَعُودنا الذكريات مثلما كانت الحمى تعود أبا الطيب - «كأن بها حياء». ويكون حياؤنا من أنفسنا أشد من حيائها. «وليس تزور الا في الظلام» حتى ولو كنا جاحظي العيون في رائعة النهار. فليس تعودنا الذكريات الا اذا ادلهم ظلام واقعنا حتى لا نرى أمامنا بصيصاً من نور ولا نرى أمامنا من مخرج. فنعود أدراجنا نتلمس، في هذا الدياس المظلم، منفذا الى النور قد نكون قد تجاوزناه دون أن ننتبه الى وجوده. أين كانت تلك الخطوة ومتى؟ وهل يرجع الذاهبون، يا قس؟

لو رجع ناس قس بن ساعدة الايادي لأخبرونا بأنهم أمضوا اللحظة الاخيرة - لحظة العبور على ذلك الجسر التي هي أقصر من طرفة العين - في استرجاع شريط حياتهم في سرعة كونية الى وراء، باحثين عن السبب في منع تأجيل الاجل. ولا نمضي الا راضين عن ماضينا لا فرق، في خطرة هذه الخاطرة الاخيرة، بين القس، واللص، والميت حتف أنفه، والميت برغم أنفه. لم أذهب، بعد. ولا أرى الى أنني ذاهب البتة. فان ذهبتُ فانني راجع لا محالة. فاذا لم يحصل الرجوع لا يكون الذهاب قد حصل. فأيهما، يا قس، تختار: الجنة أم النار؟

يكفيني، معرفة، ما تفعله بي هذه الحمى. فكأنها، حين تزورني، تأتيني عريانة وتحيطني بالعاريات من كل جانب. ويصفق لي العراة تشجيعاً لي كي أتعرى. فاذا اشتد حيائي وتشبثت بأغطيتي انتزعت العاريات المصفقات ما دونه. فأجدني، أمامها، مثلما وجد نفسه ذلك الاديب أمام العراة الذين دعوه الى القاء كلمة في ناديهم. وقفوا أمامه اجلالاً له وهم عراة. فماذا يفعل بثيابه الرسمية؟ فيخلع. فهل من الممكن أن يتوقف عند ملابسه التحتية؟

زارتني هذه الحمى، عريانة بلا حياء، حين أبلغنا زميلنا الشاب بجواب شقيق عبد الكريم، ذلك الجواب المقتضب. فأخذت تلحو عن شجرة ذاكرتي اللحاء، قشرة قشرة، فتتجلى أمامي الاسماء: اسمين اسمين، محفورة في جذع شجرة الكينا القديمة القائمة في وسط شاطىء الطابغة على بحيرة طبرية، حيث كنا نشطح مرة أو مرتين في العام الواحد - اسمه واسمها.

لم يكن عبد الكريم سوى اسم العائلة. وكانوا أشقاء ثلاثة: عبد الرحمن

وعبد الاله وعبد القدوس. وكانت أمهم نصرانية من قرية عبلين. ووالدهم من آل عبد الكريم من حيفا. وكانت لهم أخت اسمها «سرو». ونطقنا اسمها «سروة»: سمراء نحيلة كأنها ساق السروة فوقها شعر كث جعدي اختارها واحد منا لقلبه فتاة أحلامه ولعينيه رمز الجمال حتى يومنا هذا.

ومنها علمنا أن عبد هو عبد الرحمن وعبده هو عبد الاله، وعبيدو هو عبد القدوس. ولم يزاملنا منهم، حتى نهاية الصف الاول الثانوي، سوى عبيدو. لذلك أجزنا لانفسنا أن نناديه باسم عبد الكريم، اذ لم يكن موجوداً في عالمنا سواه، وسوى سروة.

كانت الدنيا مشاعة لنا، حلالاً زلالاً علينا، خصوصاً في العطل المدرسية وفي المواسم الشعبية. كانت الدنيا والآخرة هي بلادنا: الجرمق أعلى من هملايا، والبحيرة الجنة الدنيا وصنوبر الكرمل حور الجنان. كان البحر أصفى زرقة من الدانوب الازرق، وأوفر سمكاً من البحر العدني. وأما صخوره فكانت تجزل لنا العطاء دواقير أطول من قاماتنا.

كنا نجمع الفروش، طول أيام السنة، حتى تكتري الدراجات الهوائية في الصيف ونسوح في بلادنا، نسبح أو نمرح. في كل منعطف نهر ووراء كل مارس عين من الماء ترنو الينا. وهذه قريتي وتلك العاصمة. وحيثما ضعنا وجدنا قريباً أو معرفة. ولا تخرج الصبية القروية عن خفرها الا مع أولاد المدينة فتتلعثم ويشتد خفرنا ونعود بزوادة منها: عرائس من خبز الطابون، لا تدوم طويلاً، وخلسات من عيونهن تعيش حولاً لا حول لنا فيه ولا طائل. حتى اذا عدنا الى الضياع في العام القادم، في تلك القرية، قيل لنا إنها تزوجت.

فما نلت منها غير أنك سائل
بعينيك عينيها وعودك خائب.

أما في رحلاتنا، بعيداً، الى الطابغة على شاطىء البحيرة فكان الامر مختلفاً جداً. كان أمر هذه الرحلات في أيدي كبارنا. فكنا نشطح سوية، عائلات عائلات. وكنا، حين كان الشارع في مهده، أشبه بعائلة واحدة. سوى عائلة عبد الكريم التي كان أفرادها مشغولين في طلب الرزق.

كان عبد الرحمن يعمل سائقاً لقطار سكة الحديد البخاري، الذي كان يقطر عربات محملة بالصخور المقتلعة من عتليت، ذهاباً واياباً الى شاطىء حيفا الجنوبي. وكانوا يطمرون بها البحر، مشيدين الحاجز الصخري الطويل،

كاسح الامواج، الذي يحمي الآن ميناء حيفا من غائلة البحر.

وكان، في العطل الصيفية، يصطحب أخاه الصغير، عبد القدوس. وكان عبد القدوس يدعي أمامنا أن أخاه الكبير يجيز له، أحياناً، العمل معاوناً له. ومنه سمعنا، لاول مرة، كلمة «عطشلي» وأنها وظيفة المعاون. وهو الذي «يسقي» وجار النار بالفحم الحجري حين «تعطش» النار. أي تلح عليهم طالبة المزيد من الفحم الحجري.

وكان أخوهم الثاني، عبد الاله، يصطحب أخاه عبد القدوس، أحياناً، الى حيث يعمل في صهاريج شركة بترول العراق (آي. بي. سي. أو «الابسية») على الشاطىء الشمالي من حيفا. وهناك أصبح عبد القدوس «خراطاً». أي يدير آلة «المخرطة». وكان العمل فيها، في زماننا، يدوياً يحتاج مؤديه الى فطنة وتجربة وبعض الالمام بحساب الجبر. وذلك لوضع الدولاب المسنن الملائم لصق دولاب مسنن ملائم، أصغر منه قطراً أو أكبر، لتخرط المخرطة الخزوز المطلوبة في أنبوب أو ماسورة. ومنه علمنا، لاول مرة، أنهم يسمون الصاق الدولاب المسنن بالدولاب المسنن باسم «التعشيق» - «عشقه بعشقه فتعشّقا وهما متعاشقان». فأعجبنا هذا العشق الحديدي الذي لا يدوم الا حتى يؤدي المهمة التي وقع من أجلها. ولكنه لم يرضنا. قلنا: وأما العشق الانساني فأطول عمراً من أخيه الحديدي.

وكان عبد الرحمن يصطحب اخته سروة معه أحياناً. وذلك حين كانت تصاب بصداع شديد يمنع النوم عنها. وكان هذا الصداع يأتيها مرة في الشهر. فكان يأخذها معه في صباح اليوم التالي وتتغيب فيه عن المدرسة. وقيل إنه يفعل ذلك استجابة لنصيحة الطبيب.

وكانت سروة تحدثنا عن رحلاتها هذه أحاديث كانت تملأ قلوبنا شوقاً الى ما هو آت من أمور مدهشة. وكانت ترسم على عتبة الدار، بقلم رصاص أو بحجر مذبب، منجلاً ومطرقة متعاشقين، ثم تمحو الرسم بريقها في سرعة البرق، وتفر شاردة في جنينة عباس. كانت تسترق السمع الى ما كان يدور من همس بين أخيها ومعاونه «العطشلي». وأطيب الحديث بينهما، قالت، كان في الساعة العاشرة من الصباح حين يوقفان القطار على شاطىء عتليت وينزلان الى الارض مستريحين فيما تقوم سروة باعداد طعام الافطار لهما: أرغفة من الخبز مدهونة باللبنة الخضراء مع زيت الزيتون كانت تدخلها الى وجار النار لحظة ثم

تخرجها ملتهبة، من غير سوء، يسيل الزيت الثائر منها فيسيل لعابهم. وكانوا، قالت، يتحدثون عن ثورة اندلعت نيرانها في مكان بعيد. ولكنهم قالوا: ستبلغنا لا محالة.

وكانت تكفر أحياناً. فإن فعلت ذلك فرت منا الى بيتها، وتركتنا مصعوقين سوى زميلنا البهائي جمال. فقد كان، حين تمضي، يوزع ابتساماته العليمة علينا. وكنا نحمل أمرهما هذا على أنه ملاذهما الوحيد من امتزاج الاديان حتى لم يبق لهما من رابط سوى الله والوطن. كانت سروة ثورة من نار، ملتهبة. كانت تتحدانا وترتقي شجرة السرو العالية، علو ثمانية أمتار، في فناء بيتها حتى تبلغ أعلاها. فكانت تميل بها كما تشاء وتهوى. وكانت تصرخ بنا: هل تسمعونني؟ نسمعك. فتهمس بكلام. ثم تعود تصرخ. هل تسمعون ما قلت؟ لا نسمعك. الحقوني، اذن، فتسمعوا. فلا نجرؤ على ذلك. فتنزل وهي تضحك وتقول: يا جبناء. لقد خلوت بالله أسأله عن الجنة.

ـ فماذا أخبرك؟

ـ أنا الجنة وأنا النار.

وتشرد ونجري وراءها ونحن نردد:

«هذي الجنة وهيّ النار

افهم افهم يا حمار!

ولم تكن تفهم.

وكانت تأتي معنا، أحياناً، في زيارات الصيف والربيع في الطابغة. وكانت تأتي مع أبويها من دون اخوتها المشغولين بطلب الرزق.

وكانت سروة تتسلق ساق شجرة الكينا، التي يرويها شلال الماء في الطابغة حتى يومنا هذا، لتحفر اسمها واسم صاحبها في مكان عال لا تطوله أنظار الآخرين منا. أما الآخرون، فتية وفتيات، فملأوا جذعها بآيات الحب والوفاء.

وكنا نعود اليها، في العام التالي، فنجد آثارنا هذه ارتفعت اصبعاً أو اصبعين أو عفت عليها قشرة جديدة. وتكون قلوبنا، في هذه الاثناء، قد تغيرت كما لو أنها العشق الحديدي من غير مخرطة. فنحفر أسماء أخرى بأزاميل الحب والوفاء نفسها.

أما سروة فكانت تصعد، في الشطحة الواحدة، بوصة أو بوصتين في أعلى الساق لتعود على اسمها واسمه حفراً عميقاً.

حتى كانت تلك الشطحة.

ظلت سروة تصعد في أعلى الشجرة حتى بلغت رأسها وكادت تختفي عن أنظارنا.

دارت الارض في رؤوسنا ونحن نراها تصعد وتصعد دون أن تتوقف أو تبلغ رأس الشجرة. ولم نشأ أن نصرخ خوفاً من أن نثير قلق والديها عليها.

ـ الى أين، يا سروة؟

ـ علواً، علواً حتى أبلغ قصر الغول وأحرر اخطية من سجنها.

ـ اخطية؟

ـ الحقوني.

ماذا دهاها وماذا دهانا؟

كنا أولاداً. وأراني، أرانا، جميعاً، قصار القامة، بين المكور والعود ـ قصار القامة. وكانت الشجرة طويلة طويلة حتى لا نهاية لطولها. وكان الوقت عصرا. وكانت الريح تعصف بالبحيرة وتكنس سطحها زبداً. وكان الموج يشب نحو السماء، كما تفعل سروة، ليفك أقدامه من سلاسل البحيرة. ثم يطأطئ رؤوسه استكانة كما تأبى أن تفعل سروة.

فأجفلنا نداؤها وسمرنا في مواقعنا. أما صاحبها فهم واستهم وأقدم حتى الجذع. وكان صاحبها سميناً مكوراً مدوراً على طيبة قلب وضعته، في أنظارنا، فوق نزاعاتنا. فاذا هو الحكم فيها. احتضن الجذع بيديه وحاول التسلق. فسمعنا سروة تضحك فضحكنا. ثم سمعناها تصيح فينا: من أراد منكم أن يعرف سر اخطية يرتفع ويعلو حتى يلحقني.

سر اخطية؟

كان سرها في عنفوان دجوره. وكانت اخطية قد اختفت واختفت عائلتها من بعد اختفائها. وكان تأنيب الضمير يرفعنا ويحطنا. وكانت الخشخشة قد أصمت آذاننا وعواء الثعالب أصبح يخرج من صدورنا.

ـ الحقوني.

لم نجرؤ على اللحاق بها.

ـ الحقوني.

وقعت سروة من أعلى الشجرة. وقعت على الصخرة الملساء التي غسلها ماء الشلال منذ بدء الخليقة.

الصخرة التي لم يكن يجرؤ على الوقوف فوقها والابتهال الى ماء الشلال، المتدفق منذ بدء الخليقة، ماءً بكراً من رحم هذه الارض المعطاء، سوى سروة.

كانت العفريتة ترقص فوق الصخرة وتحرك يديها وخصرها النحيل، خلال ماء الشلال، فتظهر لنا راقصة حبشية في غلالة بيضاء في قصر الرشيد ببغداد، أحياناً، وأحياناً كأنها مارية القبطية. وكانت كليوبطرة. وكانت خيالاً. وكانت بعيدة المنال. كانت أشبه بما كانت تملأ قلوبنا شوقاً اليه مما هو آت من أمور مدهشة.

وقعت سروة فوق صخرتها: راقصة سمراء في غلالة حمراء سيابة، سيابة. انسابت الغلالة الحمراء عن صخرتها فغطت جرن الشلال بقطيفة ارجوانية خطفها الريح بعيداً في حضن البحيرة. ورأينا النار في حلة نار. وعادت الصخرة ملساء، عذراء، كما كانت منذ بدء الخليقة. ولم يتوقف الشلال عن مسح دمائها ودموعنا. وعادت ذاكرتنا، ملساء، عذراء من هول تلك الصدمة.

وأقفر من أهله شارع عباس. ذهبت سروة واخوتها كما ذهبت، من قبلها، اخطية.

الدفتر الثالث

وادي عبقر

ما إن جزعت ولا هلعت
ولا يردّ بكائي زندا
ذهب لدين أخيهم
وبقيت مثل السيف فرداً

(عمرو بن معد يكرب)

١ ـ الكنزة الصوفية

طرقت باب بيته عشاء. فاستقبلني عبد الرحمن بعينين سرعان ما ذكرتاني بتلك الصخرة. ورأيت غشاوة من شلال تغسلها.

قال: ستة وثلاثين عاماً وأنا أنتظر هذه الصحوة.

قلت، معتذراً: لم أنتظر أن تنام في مثل هذه الساعة المبكرة.

فحدجني بابتسامة دامعة، واقتادني الى غرفة جلوس أنيقة نظيفة تعبق برائحة الماضي، كما لو أن نوافذها لم تفتح على الشمس أربعين عاماً. وكانت مكتظة بالمقاعد ذات الطرز العتيق وقد علتها مسحة من غبار لو كان النسيان غباراً لكانه. فمددت يدي كي أمسحه عن مقعدي فأوقفتني عن ذلك مسحة من عتاب بين شفتيه. فجلست وئيداً كما يجلس من نومة صاحٍ.

قلت: ألا تفتح النوافذ على الشمس؟

قال: غابت الشمس.

قلت: وفي الصباح؟

قال: أخرج ابحث عنها في أزقتكم. وتقفر من زائريها الدار.

«أقفرت، من أهلها، حُوبَاء
فالقضَبيات فالرقباء».

قلت: عاد الشارع يضج بنا.

قال: فترسل الي صبيا؟

قلت: كانت صدمتنا بذهاب سروة من بين أيدينا، ونحن نتفرج عاجزين عن رد هذا القدر، أكبر من أن تحتملها نفوسنا الغضة. فأحطنا الذاكرة بأكياس ملأناها بالنسيان استحكمنا وراءها تصد غارات اليأس حتى لم يبق في الذاكرة سوى هذا السياج. لقد تركتم بيتكم هذا منذ ذلك الوقت فافترقت مسالكنا. فلما ظهرت لنا، فجأة، شبحاً صامتاً سلمنا بك ظاهرة أخرى من ظواهر الكابوس الذي استيقظنا عليه دون أن تحلم به ودون أن يفك عنا.

ذهب الذين نحبهم وبقي الذين نحبهم. فمن من الذين نحبهم ذهب ومن من الذين نحبهم لم يذهب؟ كانوا يصبحون عليك فترد عليهم الصبح بأحسن منه وأنت مذهول: أين التقيتها من قبل؟ فيعتب عليك هذا النسيان بعد

أن قضيتما خمس سنين زميلين متجاورين في مقاعد الدراسة. وتلقي السلام عليها وأنت متأكد من انك كنت، أيام الصبا، قبّلتها خلسة فتواعدتما والتقيتها. فيأتيك جار لك أو صديق يعاتبك: مالك وهذه القروية التي لا تعرفك ولا تعرفها وتقول ما له ومالي هذا الشايب؟

كان الانقلاب بركانياً ولكنه لم يقلب الدنيا علينا بأشد مما قلبها علينا في حيفا وغيرها من المدن. فهنا لم يبق البركان منا سوى رماد وبضعة أفواه تنفخ في رماد وريح تعصف بقاع صفصف. وكانت الريح تذرّي الرماد أشباحاً. وكنتَ، يا عبد الرحمن، واحداً منها.

وكانت الاشباح تظهر فجأة ثم تختفي، كما الاشباح، فجأة. لا أذكر أن أية جنازة اخترقت أزقتنا، في ذلك الزمن القصي، أو اعلان نعي ملصق بعمود. ما كنا نموت، في ذلك الزمن، بل نذهب. فلان أخذوه. وفلانة رحّلوها. عالم متكامل تداعى به المسرح وابتلعه الجوف وهو في مبعة الحركة وفرحة الاندماج في كوميديا الحياة. فمن ديكور تختلط ألوانه وتتلاطم جدرانه ومن حبال تترامى فتعلق بأرجل أو بأيد أو بأعناق. ناس يتأرجحون. فذلك يتأرجح برجله. وذلك يتشبث بالحبل بيده. وذلك مشنوق. ومن عارضة خشب مقصوفة يتعلق بها ممثل كهل سمين فتنوه به، فيصفق المشاهدون استحساناً.

تمتلىء القاعة بالمشاهدين المتحمسين.

المشاهدون.

تشتد الحماسة بهم. يقفون على أرجلهم. يصفقون استحساناً.

الممثلون.

ذلك المعلّق بالحبل من رجله، ورأسه يتأرجح في أسفله، يتطلع الى المشاهدين بعينين فيهما أمل: لم تعد الشاشة تفصل ما بيننا وما بينكم. لم نعد ممثلين وأنتم المشاهدون. القاعة واحدة والناس ناس، أيها الناس.

المشاهدون.

يقهقه المشاهدون استحساناً. ويتقدمون الى أمام من شدة الحماس.

المعلق بالحبل من رجله لا يراهم الا بعينيه، ولا يسمعهم الا بأذنيه، ولا يحس بهم الا بصدره، وهم يتدافعون فوقه يشيلون الردم وبقايا الهدم وينظفون الارض، يقصون الحبال السائبة وينتزعون الاخشاب العائبة. ويأتون بالجرافات تحمل الاتربة. فتتطاير من تحتها أوراق كان أخفاها الممثلون في

جيوبهم ليعودوا اليها، خلسة، حين تخونهم الذاكرة. وأهلة من اسطوانات بيضافون، وبقية من بندقية خشبية، وطرطور وعباءة سوداء من «لولا المحامي»، وغصن زيزفون وماجدولين.

ـ اخطية.

قد لا يكون حديثي معه في هذا السياق الفني. وقد يكون قاطعني، في أثنائه، بسؤال أو بتعليق أو بهمهمة. وقد تكون أحيلتنا اختلطت فأوردت على لساني ما جاء على عينيه. ولكنه، يقيناً، نادى على اخطية في اللحظة التي تذكرت فيها «ماجدولين» أو تحت ظلال الزيزفون». فسمعت صرير عجلة من ورائي. فلم أستدر. هل كنت تقوى، يا محمود، على أية حركة لو وجدت نفسك، فجأة، في غرفتك في شارع عباس تحيط بك ثلاث سيدات، هن بنات الشمعداني؟

لم أقوَ على أية حركة فيما كان الصرير يقترب ويعلو. الخشخشة. عواء الثعالب على عتبات بيوتنا. الخشخشة. واذا بسيدة سيدة جالسة على كرسي ذي عجلتين تواجهني بعيني اخطية.

طالعتني بتلك الالفة القديمة. لم تقل: لا أستطيع الا أن أحبكم. ولكنها قالت، بعينيها، لي: هل استطعتم أن تحيوا سواي؟

كان الشيخ واقفاً، منتصب القامة، حين جرى هذا العتاب بيننا. ولم يعد عبد الرحمن شبحاً صامتاً. فكأن ظهور اخطية فك عقدة لسانه. وكأنه لا يرى من فائدة لملكة الكلام الا في حضور هذه الملكة.

كذبت عليك، يا محمود، كذبة بيضاء، كما الذاكرة، حين أبلغتك بأنني انتهيت من كتابة هذه الرواية، وأتممت نقمتها عليكم. فاني أجدها الآن ما ان تشرف على النهاية حتى تشرف على حديقة جديدة أو شاطىء جديد. فلا تستعجلوا عسى أن لا يتعجلنا البين.

إن حالي فيها كحال الوالدة حين كانت تفك الكنزة الصوفية العتيقة، التي خلفها لنا زوجها الراحل، والدنا، خيطاً خيطاً. كانت تعقد أطراف هذه الخيوط فتصبح خيطاً واحداً تنسج منه دفئات لأولادها. ما كان شيء، من متاع هذا البيت، يذهب ضياعاً يا أولادي. حتى الحليب، اذا فسد، جففناه وجعلنا منه، مع السكر أو العسل، طبقاً من الحلوى.

أعرف أننا كنا نستعجلها لنتقي البرد بدفئاتها. وكانت تعتذر لنا قائلة:

لي يدان اثنتان وأنتم صدور تسعة.

وأنا أيضاً، يا محمود، لي يدان اثنتان وأنتم تسعة وتسعون فلا تستعجلني، فأنا المضطر الى العجلة.

ولدت اخطية كسيحاً. وأذهلني عبد الرحمن حين قال إنه ازداد تعلقاً بها حين علم هذه الميزة فيها. قال: لو لم يكن الجبل كسيحاً لكرهناه. ولو لم يكن البحر كسيحاً لأغرقنا. ولا تنالق اخطية الا بمن يحبونها.

وهذا ـ قال ـ هو السر الذي دعتكم سروة الى اللحاق بها، في الاعالي، كي تروه فظننتم الظنون باخطية. إن اخطية لا تلد سفّاحاً.

علمت سروة الصعود. فصعدت الى الشرفة. فكانت رسول اخطية اليكم.

ـ فأي اسم حفرته سروة في أعالي الشجرة؟

ـ اصعدوا تروا.

ـ فمن كان يحمل رسائل اخطية بعد أن صعدت سروة ولم تعد؟

ـ أنا.

لم أسأله عما دعاه الى فعل هذا الامر. وأسئلة كثيرة غير هذا السؤال قعدتُ في الغرفة المعتمة انتظر عودته حتى أطفىء غليلي منها. فقد قام، باشارة من عيني اخطية، ودفع كرسيها ذا العجلتين وغابا عن ناظري في زاوية من زوايا هذه الدار العتيقة التي شاءوا أن يحفظوها كما كانت.

وانتظرت، قاعداً في مقعدي، طويلاً. قمت وفتحت ستارة نافذة فاذا بالليل قد أسدل أستاره. مددت يدي نحو الجدران أبحث عن مفتاح كهرباء فلم تعثرا الا على فضاء. فمضيت ممدود اليدين حتى وقعتُ على عتبة خارجية. فوجدتُني واقفاً على قدمي على أرض شارع عباس تحت عمود كهرباء ضرير. لم أسمع عواء الثعالب على العتبة. ولكنني سمعتُ خشخشة الباب وهو يقفل من ورائي.

٢ ـ صباح الخير يا عبد الرحمن

ضحكت.

ضحكت حين انتبهت الى نافذة مفتوحة أمامي أطل منها رجل عربي كنا

شبيه في أمره، وأنه نظر في ساعة يده حين خروجي من دار عبد الرحمن، تذكرت أنه فعل الامر نفسه لدى قيامي بالدخول الى دار عبد الرحمن. فمن انضبط. عبد الرحمن أم أنا؟

وضحكت حين لاحظت أن امرأة، فوق شرفة، حسبت أنني أتسكع تحت شرفتها لأمر في نفسها؛ ضحكت حين وجدتني أسرع في سيري لأبعد عن نفسي هذه الشبهة أو اختها؛ ضحكت حين وجدتني أتحاشى اللقاء مع أحد زملائي الذي كان عائداً الى بيته في شارع عباس تفادياً لأسئلته التي قد لا أجد لها جواباً. ضحكت حين تداريت عنه بزاوية بيت. فأعوى كلب. ففتحت صاحبة البيت الباب في وجهي مرحبة. فقد كان البيت، فيما مضى من «زمن العرب»، بيت واحد من اخوتي.

قالت: اشتريناه من سكانه اليهود السابقين. ما بدلوا فيه وما بدلنا. كان اخوك حريصاً على بيته، الله يتم عليه.

ضحكتُ حين قلت لها ان الله أتم نعمته عليه، منذ خمسة أعوام، فأخذه الى جواره.

وضحكتُ حين أخبرتني بأن سكان شارع عباس اليهود يجلون عنه، الواحد بعد الآخر، منذ أن أخذ سكانه العرب في التكاثر.

ضحكت حين دخل زوجها فوقفت وقدح القهوة في يدي فوقع على الارض فانكسر فقال: انكسر الشر. فقالت: أول قدح ينكسر من طقم أخيك القديم. ضحكت لأنني كسرت، بيدي، قدحين من هذا الطقم منذ «زمن العرب». وهو طقم شائع من صنع ياباني.

ضحكت حين وجدتني عاجزاً عن ابلاغ زملائي، في الجريدة، بخبر زيارتي وبما جرى لي معه.

ومع اخطية؟

ضحكت حين راجعت ذاكرتي فوجدت أنها لم تتكلم الا بعينيها. فهل ولدت اخطية خرساء أيضاً؟

وقفت للبندول على زاوية من زواياه الثابتة، على عتبة مدخل «الاتحاد» في زقاق الحريري. رقم الدار ٩ والساعة التاسعة وتسع دقائق. لقد كان زميلنا الشاب العصري تحقق من دقة البندول، في مروره من هذه الزاوية، في أيام مختلفة وفي الفصول الاربعة، فوجدها مضبوطة.

بت في حيفا لكي أستيقظ وأنزل الى زقاق الحريري وأكون أمامه في تلك اللحظة المضبوطة، فأطرح عليه السلام.

وانتابتني الظنون في تلك الليلة حتى لم أنم الا في ساعة الفجر الكاذب، فقد لا أستيقظ في الموعد. وقد يصاب بوعكة. بل قد يموت. وقد لا يمر، لاول مرة، في تلك اللحظة المضبوطة.

وقفت على عتبة دار «الاتحاد» بدءا من الساعة الثامنة والنصف صباحاً. سمعت جارتنا، من فوق شرفتها، تتهامس مع زوجها عن سبب وقفتي الصباحية هذه من غير عادة. فضحكت في عبي مما سيشطّون به من تأويل. دخلت عاملة البدالة. لم تطرح علي الصباح بل أبدت دهشتها من تبكيري. فتحت الباب وقعدت على مقعدها أمام البدالة، ثم أطلت من نافذتها على الزقاق. دخلت عاملة النظافة وصبحت ولم تتزحزح. أخذ الموظفون والموظفات، المحررون والمحررات، في المجيء الى الدار وأنا واقف على العتبة متصامماً لا أنظر الى فوق ولا الى وراء ولا الى جانب. غير أنني أحسست بالشرفات وبالنوافذ تمتلىء بالنظارة الصامتين.

ضحكت في عبي حين انتبهت الى ما يحدثه في الناس أمر غير مألوف حتى ولو كان أمراً طبيعياً غاية في طبيعيته. فأي السلام الطبيعي أطرحه عليه حين يمر؟ صباح الخير؟ صباح الخير يا عبد الرحمن؟ السلام عليكم؟ مرحبا عبد؟

هل سيمر؟

متى تأتي هذه الساعة؟

جاءت. مر شبح وادي النسناس من أمامي في اللحظة المضبوطة

لم أطرح عليه السلام ولم يلتفت نحوي. مضى كما كان يمضي في كل يوم من غير أي انتباه.

لو استيقظنا، صباحاً، ونزلنا الى فرن وادي النسناس نشتري منقوشة زيت بزعتر فلم نجد الفرن في مكانه المضبوط لأقمنا الغاغة. أما ما دام الفرن قائماً في مكانه فهل نطرح عليه السلام لكي نتأكد منه؟

غافلت النظارة ونزلت الى الفرن. وقفت أمامه وطرحت السلام عليه، وأنا أضحك في عبي. ولكنني طرحته في غفلة من النظارة وجدتني، وأنا أطرحه،

كما العفريت في الابريق. ولم أظهر رأس الحصان الا لنفسي فأغرقت عني بالضحك.

انطويت على نفسي فأغرقت بالضحك من نفسي. أما وجهي فحافظت على شكله الاعتيادي. هل كان عبد الرحمن، بشكله الاعتيادي، يضحك منا وعلينا؟

كاد صدري ينفجر بالضحك المكتوم في صدري فازددت تجهما أمام النظارة. نظري الشارد لا يلتقي أنظارهم الشاردة. كلٌ منطوٍ على عفريته. فلماذا لا تلتقي عفاريتنا؟

هل تلتقي؟

طيب الله ثرى مديرنا عجاج نويهض. لولا شدته علينا لكنا لبسنا قبعنا ولحقنا ربعنا من أدباء العرب في الاستهانة بهذه اللغة التي منحت لغات الارض طراً اسمها ولسانها.

وكان يرأ بنا فأنشأنا أبناء بتراثها بررة. فأوكل بي نظم برنامج اذاعي عن «أمثال العوام» من كتاب ضخم كان علي أن أختار منه أمثالاً أوزعها على سواي من الزملاء وعلى نفسي، في شبه حوار اذاعي فيما بيننا. فأخرج عفريتي لسانه من الابريق. فاخترت من «امثال العوام» ما يصلح لنا انتقاماً من شدته علينا. وكان يقظا يستمع، في مكتبه أو في بيته، الى ما يذاع. وكنا كسالى لا نراجع المادة التي علينا أن نذيعها قبل اذاعتها. فما انتبه زملائي الى ما اختاره عفريتي من «أمثال العوام» الا ونحن «على الهواء». فأخذ الواحد منا يكظم ضحكته. فاذا اشتد الامر على احدنا أغلقنا مفتاح الاذاعة.

ذهب الذين أحبهم. . .

أصبحنا واذا نظرة الواحد منا في وجه الآخر تُخرج من صدره عفريته. فيغرق في الضحك. فتوهمنا أن مجرد المشاهدة هو السبب. فخرجنا من قاعة الاذاعة، وصار الواحد منا يدخل الى القاعة ويجلس أمام المذياع يلقي المثل المقرر عليه ثم يهرب خارجاً. فكنا نصطدم، مكرراً مفراً، فنموت من الضحك حتى لم نقو على أن نذيع، في ساعة كاملة، أكثر من خمسة أمثال أو ستة. أما بقية الساعة فأمضيناها وقد أقفلنا مفتاح الاذاعة ـ صمتاً مريباً وقف وراءه مديرنا عجاج نويهض رحمة الله عليه.

ذهب الذين أحبهم. . .

قاصصنا، رحمه الله، بأن منعنا من الخروج من مكاتبنا في الاذاعة طول شهر رمضان المبارك. فحرمنا من التقائنا السنوي المضمخ بنور زماني، آية من الله، لور دكاش، وايليا بيضا، وعامر خداج، وأبي السعيد، وسعيد وراجي ومراد، ومسرحيات أولاد الجوزي، وليالي السمن والعسل الجوهرية.

ذهب الذين أحبهم. . .

فلماذا ذهبوا؟

كم مرة وقفنا ألوفاً، في حفل تأبيني، اجلالاً لذكرى فقيد عزيز.

دقيقة واحدة.

دقيقة واحدة ننطوي فيها على أنفسنا، كل مع عفريته يضحك في عبه على نفسه. أمام الموقف الحرج نتثاءب أو تدهمنا الرغبة في الضحك.

دقيقة واحدة بطلب من عريف الحفل.

فما المانع من أن تأتي بغير طلب؟ ما المانع من أن تلتقي، في لحظة واحدة، عفاريتنا وأن تتفق فيما بينها، في غفلة منا، على هذا اللقاء؟

في دقيقة واحدة. في ساعة واحدة.

هل تختلف العفاريت شعوباً وأقواماً؟

أما في شارع «هحالوتس»، في تلك اللحظة، الدقيقة والساعة. فلم تختلف.

كل انطوى على نفسه، على عفريته.

ذهب الذين أحبهم. . .

لماذا ذهبتُ مع الذاهبين؟ لماذا بقيتُ من دونهم؟ ولماذا جئتُ وتركتُهم؟

ان مرور الوقت على هذا الامر، من غير أن يهتدي أي واحد منا على جواب، هو الذي أهداني الى هذا الجواب، الى الامر الطبيعي حتى غايته.

فلو اختار الامير أن يضع الورقة الخضراء الوحيدة على جبين واحد من أبناء الوزير الثلاثة لكان اثنان منهم، على الاقل، علما بأن الورقة على جبينه لونها أحمر. أما وقد ساواهم بلون الاوراق، فوق جباههم، فقد اختلط الامر عليهم جميعاً. فلما صمت الثلاثة، ساعة من الزمن، أدرك أشدهم فطنة حقيقة الامر.

ذهب الذين أحبهم، وبقيت الخطية.

وفي لحظة من اللحظات، في شارع من شوارع حيفا، المكتظة بالسابلة،

وبالسيارات، خرجت العفاريت من الصدور، والتقت في وادي عبقر في رائعة النهار: كل يسأل عن اخطيته كيف تركها، ولماذا تركها، وكيف حالها من بعده. اخطية الكسيح لولا سروة. اخطية الخرساء لولا . . .

لولا عبد الرحمن؟

الناصرة/ ١٠ شباط ١٩٨٥